كِتَاب الهِجرة والوَصيّة

للإمَام محمّد بن القاسم بن إبرَاهيم عليه السَّلام

مُنتزع من مَجْموع كتبه ورسَائِله

تحقِيق :عبد الكريم أحمد جدبان

منشورات مكتبة التراث الإسلامي تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

كتاب
الهجرة والوصية

كتاب الهجرة والوصية

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلواته على محمد الأمين وآله الاكرمين.

الحمد لله رب العالمين، هادي من اهتدى من المهتدين، وولي رشد من رشد من الراشدين، هو الله الذي دل على وحدانيته وربوبيته، بما أظهر لهم في أنفسهم من آثار قدرته، بتقديره وتدبيره إياهم، وحكمته في تأليف خلق أعضائهم وأبدانهم، باطنها وظاهرها، وما في ذلك وفي حواسهم الخمس، من أبصارهم التي بها يبصرون، وشوامهم التي بها يميزون بين الأرايح الطيبة، والمشمومات المتنة، وحاسة الذوق من اللسان والفم، التي بها يميزون ويفهمون مذاق كل ما له طعم، وحاسة السمع التي يدركون بها كل مسموع من الأصوات، ويفهمون ما فيه من ضر ونفع، والحاسة الخامسة التي في جميع البدن وهي حاسة اللمس اللامسة، التي بها يوجد كل حر وبرد، ويابس ورطب وخشن ولين.

مع ما لا يحصى ولا يؤتى عليه بعدد من آثار حكمته وتدبيره، في جميع كل ما صنع ودبر من الإنسان وغير الإنسان، وجميع ما في الأرض برها وبحرها من الدواب والطير والحيوان، المختلفة في صورها وهيئاتها وتركيبها وأغذيتها وأصواتها وظلها، وكل ما في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس وجميع الحيوان، والشمس والقمر والنجوم، وما يحدث الله بجريها وطلوعها

وأفولها من تغير الأزمان، وما يدرك به الليالي والأيام من العدد والحساب، وإحاطة الفلك بذلك كله ودوره على أعلاه وأسفله دائبا لا يفتر طرفة عين، عند فكر من فكر ونظر، ولا في غفلة الغافلين، وما في الحيوان في البر والبحر من الإنسان وغير الإنسان، من عجيب صنعته أزواج الإناث والذكران، وتصريف نسولهم في الأرحام، وما يكون منها يبيض في العش والأكنان، واختلاف أحوالها في الصور والهيئات والاعتدال والألوان، التي إنما تحيط العقول والفكر إذا اجتهدت وتفرغت لإحالة التفهم والنظر، بقليل من كثير، وصغير من كبير، ما يحيط به صانعها الذي صنع كل عجيب حكمة وابتدع.

ولا بد أن يفهم كل ناظر نظر، ومفكر عاقل فكر، أن لما ذكرنا من المبتدعات من مبدع، إذ لا بد لكل موضوع مصنوع محدَث من واضع، كما لا بد باضطرار لكل مدبَّر من مدبِّر، وكما لا بد لكل مرفوع وإن لم يُر مَن رفعه من رافع، وكذلك لكل مصوَّر أو مبني وإن لم يُر مَن صوره وبناه فلا بد له من مصوِّر بان، وكذلك فلا بد للإنسان وغير الإنسان من الحيوان من خالق لهم، ومصور صوَّرهم وتولى صنعهم وتدبيرهم وابتداعهم وتصويرهم، وذلك فهو الله الواحد الحكيم، الأول قبل كل أول، والقديم الجواد، الذي كل جود من فضل جوده، الرءوف الرحيم، الذي هو أرحم وأرأف بجميع ما خلق من الوالد الرحيم بولده، بل رحمة الآباء والأمهات من فضل رحمته، ولا بد لكل مدبَّر محكَم ومصرَّف من مدبِّر حكيم مصرِّف.

وبلا شك فلا بد لكل ما وجد مبتدَعا محدَثا مصوَّرا مصنوعا مؤلفا، من مبتدِع صانع محدث مؤلِّف مصوِّر، بل قد شهدت فطر العقول عند كمال فطرتها قبل جولانها بالنظر وغوص الفكرة، أنه رب كل الأشياء، مما في الأرض وفي السماء، وولي صنعتها، وذلك في جميع الناس، وكل البشر سودانهم وحمرانهم من كل الأجناس، معرفة طباع وفطرة، إذ لا يحتاج فيها إلى نظر وفكرة، وهو الله الذي لا تشبهه جميع الأشياء، ولا تشبهه في شيء من

صفاتها، لأنه لو أشبه شيئا من أجزائها أو كلها، للحق به ما يلحق بها من صفاتها وأسمائها، حتى يكون بكثير مما وصفت به موصوفا، إذ كان كل شبيه لما يشبهه مثيلا، ولحاله أو ببعضها معروفا، والله تبارك وتعالى الواحد الحق في الوحدانية، الأول الذي لا مثل له في القدم والسبق والأولية، البعيد من شبه ما برأ وفطر وصنع من البرية، بل هو الله الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ – كما قال سبحانه – وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وهو الله ذو القوة التي لا تبلغها قوة، والقدرة العالية فوق قدرة كل قدير، كل من خلق سبحانه من خليقته فهم مفطرون على معرفته بأبين معرفة، أنه ليس له نظير ولا صفة، كما يعرف الأطفال بإلهام الله إياها بغير فهم ولا فكر، بل بما ركب الله فيهم من غريزية الطباع والفطرة.

وكذلك يقال فيما قد اتفقت به الأخبار، وجاء في كثير من الآثار، أن الملائكة والجن والإنس والبهائم كلها والأطفال مفطرون على معرفة الصانع الإله الباري ذي الجلال والإكرام، فللملائكة في المعرفة به وبجلاله وعظمته أفضل مما للجن والإنس والبهائم في معرفتها بربوبيته، خلاف معرفة ذوي العقول المكلفين، وهي معرفة طباع وولوه غريزية، لا كمعرفة ذوي العقول الناطقين، وكل بني آدم من أهل الإيمان والمشركين، فيثبتون الله صانعهم وصانع كل جميع ما يرون، لا يشكون في ذلك جحودا لصانعهم ولا يمترون، وإن ضلوا بعبادة الأوثان.

وقد ذكر الله ذلك عن مشركي أهل الجاهلية في آي من القرءان، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]، فهو الله الأول قبل كل أول، وهو الله الآخر الباقي بعد كل ما خلق وجعل، وهو

الله المعروف الظاهر في فطرة العقول بأيقن الإيقان، وهو الله الباطن الخفي عن درك العيون، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحي القيوم، ذي العظمة والجلال الذي لم يزل ولا شيء غيره ولا يزال، كان قبل كل خلق وزمان، ولا يزال إلى غير غاية ولا ميقات أوان، لا يتبدل ولا يتغير، ولا يلم به عرض من الأعراض فيتحول، جل عن ذلك وتقدس من ليس له نظير ولا مثيل، فاطر كل موجود، وليس يحيط (١) به شيء من الأشياء، جل وعلا عن صفة المحدود، ذو البقاء والثبات والدوام، لا تجري عليه ولا تناله ساعات الليالي والأيام، وكيف يجري عليه أو يحيط به من ليس بينه وبينه مشابهة ولا صلة، وما هو سبحانه خَلقَه وصَنعَه، و لم يزل متقدما قبله.

وإذ الليالي والأيام وما مضى وبقي من الزمان عدد حركات الفلك ودور الشمس والقمر، والنهار علامته ظهور الشمس، وجريها في السماء فوق الأرض ووجودها، والليل فعلامته تغيُّب الشمس تحت الأرض وفقدها، والشهر فهو قطع القمر للفلك ونزوله في جميع بروجه، فإذا أتى على بروجه كلها بسيره وجريه ودوره فذلك شهر، والسنة هي نزول الشمس ودورها على جميع منازلها من الفلك، فإذا نزلت في جميع منازل البروج وقطعت الفلك فذلك سنبر السنة، وبدور هذه النجوم وبالسنة والشهر والليلة واليوم يدبر الله سبحانه ما خلق.

والزمان فهو عدد حركات جري الشمس والقمر والفلك، وهذا العدد وقته حساب القمر الذي وقّته الله للإنسان وغير الإنسان، قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ

(١) في المخطوط: محيط. ولعل الصواب ما أثبت.

﴾ [فاطر:١١]، والكتاب هاهنا فهو العلم من الله بما يعطي خلقه ويهب لهم من الأعمار، فيكون معلوما عنده علما لا يتغير، فشبهه الكتاب بثبت ثبات ما لا زيادة في ولا نقصان، كثبات ما رقم بالخط من الحساب، تمثيلا من الله سبحانه لثبات علمه بما كتب، فهو في اللسان العربي لا يحتمل غلطا ولا زيادة ولا نقصان بعد تصحيحه ورقمه، ولا يتوهم من يعقل أن الكتاب هاهنا خط من الخطوط، بل هو الأمر الثابت في علم الله وحكمته.

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن:٥]، يريد بالحسبان: الحساب، فليس شيء مما خلق الله تبارك وتعالى في الأرض ولا في السماء إلا وهو يجري عليه الزمان، من الإنسان وغير الإنسان، غير أن السماوات من المخلوقات هي أبعد في الضعف والبلاء والأوقات، لأن السماء أكرم بنية من الأرض، وهكذا فضّل الله بعض الخلق على بعض.

وكذلك ما في الأرض أوهى - يا بني - وأضعف مما في السماء السفلى، وما في السماء من نجومها وملائكتها أقوى وأبقى، بتبقية الله ما في الأرض السفلى من الإنسان وغير الإنسان، قال الله تبارك وتعالى وهو يصف ضعف الإنسان وبدو خلقه ثم قوته، في أوسط عمره، ورجوعه إلى الضعف والبلاء في آخر مدته وأيامه: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الروم:٥٤].

فسبحان خالق الأرض والسماء!! الذي ليس لغيره دوام ولا بقاء، كل ما سواه فإلى زوال وفناء، هو معمِّر المعمَّرين، ومفني من مات وهلك من الميتين، لا تجري عليه سبحانه مدد الأزمنة والدهور، وهو مدبِّر الخلق والأمور، وإليه المنقلب والمعاد والمصير.

وبعد - يا بني وولدي - فهذه وصيتي لكم واختياري، حين كبرت سني، وجربت الأمور وأدبر عمري، وأشرفت على الرجوع إلى صانعي وإلهي

وخالقي، وخفت أن يحول الموت الذي لا بد منه لكل مخلوق بينكم وبيني، فتبقوا أغمارا جهالا بما فيه رشدكم، وألا تجدوا بعدي مَن يفهمكم بما فيه صلاحكم، في أموركم ومعايشكم، لما سترون من اختلاف أخبار الناس عليكم في الأديان، ومصالح المعاش والآداب وأخبار البلدان، واختلاف الناس في هذا كله قليله وكثيره، إنما هو باتباع أهوائهم، واختلاف عقولهم وآرائهم، وما قبلوا من غي أو رشاد أو خطأ، والخطأ الغالب عليهم من آبائهم، إذ حقت الفرقة لكم بالوفاة، وأن تبقوا بعدي بين قرابة وعامة أكثرهم جفاة، وكنتم أحداث الأسنان، لم تخبروا حوادث الدهر والزمان، ولم تفهموا أمور الناس واختلافهم في الأديان، ولا كيف التأني في المعايش ومصالح الإنسان، وما يحسن من الأمور والأخلاق، ومواضع البُلَغ والأرفاق.

فرأيت يا بني أن أضع لكم إن شاء الله ما تحتاجون [إليه] أعظم الحاجة في أصول الدين طرفا، وأن أرسم لكم الصواب إن شاء الله تعالى، وبعون الله وهدايته في أمر معايشكم والاختيار، لكم ولمن لعل الله أن يهبكموه مِن نَسلٍ بعدكم من قبل وصيتي، من ولد جدكم القسم بن إبراهيم رحمة الله عليه، تزول به عنكم شكوك الحيرة، وتُكفَون به إن شاء الله في الاختيار والإعتباد طول الأمد في التجارب والخبرة، ولم أضع لكم ما وضعت من وصيتي إياكم في هذا الكتاب إلا بعد طلوعي في العمر على الستين، وبعد - والحمد لله - ما أحطت بكثير مما لا يستغنى عن خبرته من أمر الدنيا والدين (١) حتى أتيت فيه على أكثر ما يُحتاج إليه في البحث والخبرة، وبعد أن نظرت في كثير من علم العرب وكثير من علم العجم، وبعد أن خبرت بالمحاضرة وتخبَّرت بالمسألة أخبار كثير من البلدان والأمم، فمن الأمم من خبرته بالمشاهدة والمعاينة والمجاورة والمساكنة، ومنهم من تخبَّرت عنه من يخبره ممن يجاوره ويساكنه، ممن

(١) في المخطوط: الدين والدنيا. ولعل الصواب ما أثبت.

أثق بفهمه وصدق قوله وحديثه، حتى كأني رأيتهم في بلدانهم، وكأني عاينت جميع أمورهم وشأنهم، ومن البلدان ما رأيته عيانا، وسكنته زمانا.

فأما الذين فهمت شأنهم وأديانهم، وآدابهم وأخلاقهم، فللعرب من اليمن ومن نزار، الأبرار منهم والفجار، والفرس وأهل خراسان، والسند والروم والسودان، فهؤلاء الأجناس والعرب منهم قد خَبِرتهم في بلدانهم وأوطانهم، وفهمت ما هم عليه من مذاهبهم وأخلاقهم، فأما من سميت من أجناس العجم فقد خَبِرت بعضهم في بلدانهم، وفهمت كثيرا مما هم عليه في أرضهم من شأنهم.

فمما سكنت وخبرت وتخبرت من أرض العجم العراق، أقمت به سنين ببغداد والبصرة حينا وزمانا، ودخلت الأهواز ورأيت أهل كورٍ كثيرة من أهل خراسان، وفهمت برؤيتهم والأخبار عنهم ما هم عليه أو أكثره في بلدانهم، من الأخلاق والشأن، ودخلت بعض أرض السودان، من البجة وطرفا من مواضع الحبش.

وأما المغرب والبربر والجزائر والبحرين، فإن أبي رحمه الله كان قد أقام بمواضع من أرض المغرب دهرا، وساد إلى أقصاها أشهرا.

والشام وغيرها من بلدان الإسلام، فقد بحثت عنها بحثا شافيا، حتى كنت بالاستخبار عنها وبالفتش والعناية ما كان لأبي عنها من الاختبار، فصرت عن معاينتها مستغنيا مكتفيا، ولو كانت الخبرة والعلم في الأمور والبلدان لا يكتفى فيها بصحيح الخبر والإستغنا في فهمها إلا بالعيان، لما فهم أحد ما لم يعاين، ولا كان له بغائب إيقان، ولكثرة الأمم وبلدان العرب والعجم، عن أن تُدرك بالعيان وتفهم، ولكن كل غائب يثبت عنه صحيح الخبر فذلك يشفى فيه ويدرك به منه مثلما يدرك بالمعاينة والنظر. ولو لم يكن ما ذكرنا يدرك ويفهم إلا بالعيان، لَمَا فهم أحد ما لم يعاين، ولَقَصُر عن ذلك أطول عمر الإنسان.

وسأنبئكم إن شاء الله تعالى عن كثير مما صح عندي من أخبار الأمم وشأنها، وأخبار كثير مجملة من أخبار بلدانها، إذا جاء وقت الإخبار عنها في مواضعه، فتمسكوا إن شاء الله بفهم ما أخبركم به، فإن في ذلك كفاية لكم كافية، وخبرة قد كفيتكم تحصيلها شافية، فلست آلوكم تحصيلا لصحيح الأخبار، وما لم يدرك مثله أو بعضه إلا بعد اختلاف أخبار الناس، أو بعد عمر طويل وأعمار.

فتفهموا - إن شاء الله ولا قوة إلا بالله - ما سأبينه لكم، والتوفيق والمعونة من عند الله، تستغنوا بتحصيل ما حصلت لكم من الخبر، عن انتظار التجارب التي لا يحصل لكم منها يقين الفهم إلا بعد طول العمر، وأنا سأضرب لكم مثلا جامعا في قبول ما كفاكم الله خبرته، حتى جمعته لكم في آخر عمري معا، وذلك من المثل فيّ وفيكم، وفيما ألقيه من محصول حقائق الاختبار في الدين والدنيا إليكم.

مثل رجل كان له وُلدٌ صغار جهال أغمار، يحتاجون إلى خبرة - الأمور في الدين والدنيا - كثيرة، واختبارهم لذلك بطلب بينه وبينهم مسافة بعيدة مسيرتها ستون سنة، وكان أبوهم قد أخبرهم خبرها، ودخلها وعاين أكثرها، فأخبرهم عنها وهو والدهم لا شك في نصحه لهم، وعطفه بالرأفة والرحمة والرقة عليهم، فرأى أن يُفهِّمَهم ما يحتاجون إلى فهمه، لما خشي أن لا يبلغوه، ولا يحيطوا فيه بمثل اختباره وعلمه، فشرح خبر تلك البلاد لهم، وعلم أن ما أحاط هو به مما يحتاجون إليه ولا يستغنون عنه، لن يدركوه إلا في آخر أعمارهم التي شبهها بمسافة البلد، والبلد فمثل الأمور التي لا يستغنون عن خبرها ولا يستغني عنها أحد، لأني لم أفهم الأمور التي سأشرحها لكم إلا بعد طول التعمير، والمسافة إلى الإحاطة بالتجارب التي لم أدركها إلا بعد التمييز، من الفهم والنظر ستين سنة أو نحوها.

فإنكم إن لم تكتفوا بما أخبرت وحدثت وجربت، وأردتم اختبار ذلك لأنفسكم، لم تفهموا منه بعض ما فهمت إلا بعد أن تعمروا شبيها مما عمرت عند إختلاق جِدَتكم إن الله عمَّركم وأخَّركم، وحينئذ لا يبقى إلا اليسير من أعماركم، فمن كان عقله منكم صحيحا، فسيعلم إن شاء الله أني لم آله إلا رحمة له من الغلط نظرا صحيحا ونصحا، بل لعلي أن أكون بسبقي لكم أقوى منكم فهما، وأحسن تفقدا للأمور وتفهما. والله أسأل أن يهبكم ألبابا وعقولا وعلما.

فخذوا يا بني ما قد كفاكم الله اختباره، واقبلوه وأَقرُّوه في العمل به من قلوبكم قراره، والله أسأل لكم العون والرشاد، والتوفيق في أمور دينكم ودنياكم للصواب والسداد، فإنه لا يجتهد لكم قريب ولا بعيد من بعدي في النصح لكم والنظر والشفقة عليكم من الغلط اجتهادي، والله أسأل لكم ولي العون والرشد والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم الكريم، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وعلى آله الأبرار من ذريته وآله.

[التوحيد]

فأول ما أنا قائل لكم، وشاهد به معكم وقبلكم، أن الله ربي وربكم، وخالقي وخالقكم، ربنا ورب آبائنا الأولين، وأنه خالق السماوات والأرضين، وما بينهن وما فيهن من الخلق أجمعين، الذي أحياني وأحياكم بعد أن لم نكن شيئا، وهو الذي يميتني ويميتكم سبحانه ولن يزال حيا.

فأشهد وتشهدون أن لا رب ولا إله غيره، وأن إليه منقلبي ومنقلبكم، ومعادنا ومعاد كل مخلوق ومصيره، وأنه إلهنا الذي خلقنا وبرأنا، وخلق قبلنا أمهاتنا وآبائنا، فعطفهم بالرأفة والرحمة علينا، فمن إحسانه ونعمه، نِعمُ الآباء وإحسانهم إلينا.

وأشهد وتشهدون معا أحياء وعند الوفاة ويوم النشور: أن محمدا رسول الله وخيرته ومصطفاه، وأنه قد بلغ رسالات ربه، وصدع مجتهدا صابرا مجاهدا بتبليغ ما أمر به، فلم يقصر في شي من أمرر الله وطاعته، ولم يزل مجتهدا مجدا في الله طول حياته، حتى صار إلى الله راضيا مرضيا، مقدسا رفيعا عند الله زكيا، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما، وزاده من زيادات كراماته تشريفا وتعظيما.

وأشهد وتشهدون أن إلى الله المنقلب والمصير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

[حب الله شكر لنعمه]

فأول ما أنا به موصيكم حب الله وتقواه وطاعة خالقكم وبارئكم، الذي صنعكم وفطركم، وصوَّركم فأحسن صوركم، خلقا من بعد خلق في ظُلَم الأرحام، كما قال الله سبحانه وتعالى وهو يخبر عن خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، وهكذا كما قال تبارك وتعالى: أنشأكم وقدركم، وفي هذه التارات والطبقات من التصوير نقلكم وصوركم، وهو أولى بكم وبملككم من آبائكم وأمهاتكم، إذ ليس للوالدين فيكم حجة غير الحركة التي كانت بها النطفة في الرحم، ثم كان سبحانه هو الذي دبَّرها وصرَّفها ونقلها، حتى أتم من خلقه ما أراد أن يتم، رأفة ورحمة وجودا وكرما، فوهبكم لآبائكم، وابتدأكم بخلقكم، من غير حاجة منه إليكم، بل لما أراد من الإفضال والجود عليكم، ثم لم تزالوا تتقلبون في نعمه، وفضله وعطاياه وكرمه، صغارا وكبارا، وليلا ونهارا، ومع كل نَفَس وطرفة عين.

يعرفكم سبحانه في أول ما ذكرنا وآخره أنه ربكم، ومالكم ومدبركم ورزاقكم، إذ ليس من نعمة أنعمها أب وأم عليكم إلا وهي منه، لا صنع فيها لصانع ولا لوالد، غير أنه أجرى ذلك على يدي الوالدين وأوصله إليكم، والذي أوصل إليكم بالوالدين من النعم فنعمه فيما ظهر وبطن أكثر من ذلك أضعافا وأعظم، إذ هي مع كل نفس ولمحة عين وطرفة، وفي كل نوم وهدوء، وعند كل سكون وحركة، ونعمه كما قال تبارك وتعالى أكبر وأوفر وأدوم

من أن تعدى وتحصى. قال الله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال جل وتقدس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس:١٧-٢٣]، فذكر نعمةَ صنعِ العظام الأولى التي أبتدأ بها الإنسان، طَولاً منه وامتنانا وتفضلا، من خلقه له وصنعه إياه، ثم ثنى بذكر النعمة في طعامه الذي به غذاؤه، ومنه مادته وبدا إدامته وإبقاؤه، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، يعني سبحانه: بُلغةً لكم في الغذاء الذي به دوامكم في هذه الدنيا وبقاؤكم، ومتاعا وبلغة لأنعامكم إذ ما أنزله من السماء فصبه صبا هو الذي أنبت به ما ذكر أنه شق الأرض عنه شقا، من الحب والعنب.

والحب فهو: الحبوب كلها، المتغذى بها من البر وغيره من الحبوب التي أنبتها للعباد، وكثَّرها وبثها في البلاد، فلم يجعلها للمطيعين دون العاصين، بل منَّ بها على البشر كلهم أجمعين.

والقضب فهو: القضب المعروف الذي أنبته الله في الأرض كلها، وجعله غذاء ومنفعة لدواب أهلها.

والزيتون فهو: شجر الزيت الذي به يأتدمون.

والنخل فمنه: الرُّطَب والتمر الذي يأكلون.

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾، فالحدائق هي: الأرضون التي تضم الأشجار كلها، التي جعل الله لبني آدم منافعها.

والغُلْب من الحدائق فهي: الملتفة العامرة القوية، التي قد استغلبت واغلولبت، فهي غلبٌ قد تمت والتفت وكملت.

والأبْ فهو: الأصول التي جعلها الله للبهائم والمواشي نابتة عند المطر وبعده، وفي أوقات الجدب من الأشجار النابتة، والأصول القوية الثابتة، التي بها قوام دوابهم وبهائمهم، التي خولهم الله إياها، وجعلها قوام معايشهم.

فمَن أولى يا بني أن يشكر أبدا؟! ويطاع في كل ما به أمر، ممن أنشأنا وأنشأكم، وخلقنا وخلقكم، فصوَّر وعدَّل وركَّب الأبدان، فسوَّى وقدَّر، وأحكم كلما خلق غاية الإحكام بحكمته في جميع ما بطن وظهر.

فهو سبحانه أولى وأحق بنا من الآباء والأمهات، لأنه الصانع لنا، المصوِّر المنعم علينا بجميع النعم الظاهرات علينا والخفيات.

وأين وإلى أين المعْدَلُ عن إعظامه وإجلاله وشكره؟! فيا ويل لمن غفل عن اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، فنهانا عما لا يرضيه، وأمرنا بأداء ما يرضيه، فلهى ساهيا عما يحق ويجب من تسبيحه، وخشيته وذكره.

فعليكم يا بني أبدا ما بقيتم، وما بَلَغْته قوتكم وما استطعتم، باستشعار حبه، والكلف بذكره في باطن ضمائركم، وخوفه ورهبته في علانيتكم، وخفي سرائركم، وأن يكون حياؤكم منه أكثر من حيائكم من أمهاتكم وآبائكم، ومحبتكم له أعظم أضعافا لا يؤتي على عددها من محبتكم لأولادكم وأحبابكم.

فمن ذا وأين ذا الذي هو أولى بكم، ومن جميع الخلق بالتقوى والطاعة والمودة والحب، من الله الإله البر الرؤوف الرب الكريم، الذي تحتمل منا لا يحتمله آباؤنا البررة، ويحلم عنا مع وجوب عظيم حقه علينا، فيما نفرط فيه من

طاعته، وإغفالنا ذكره، ولو لا فضله وحلمه ورأفته وكرمه، لما حلم عنا ولا أخَّرنا طرفة عين، إذ خالفناه وعصيناه، فيما عنه نهانا، أو به أمرنا.

فأبدؤا يا بني بطاعته وتقواه، يَكْفُّ الله بطاعته وخشيته كل من يطيعه منكم ويخشاه جميع ما يهمه منكم من أمر آخرته ودنياه. فقد رأيتم كيف كرم الله ورحمته ولطفه وإحسانه وتوفيقه،ورأفته بجميع خلقه، مع معاصيهم وظلمهم لأنفسهم بإغفالهم عظيم ما يجب له عليهم من واجب حقه، لا يقطع بذلك عنهم ما يتصل بهم ليلا ونهارا من عطايا نعمه ورزقه.

فاتقوا الله ربكم وبارئكم، ذا الإحسان والنعم عليكم، معطي جميع النعم دقيقها وجليلها والخيرات كلها، عباده وخلقه من أهل الأرض والسماوات، فلله سبحانه وتعالى الدنيا والآخرة، ومنه تعالى النعم فيها الظاهرة والباطنة.

فاتقوا الله فالوصية لكم يا بني أفضل وأجزل من كل نفيس وعظيم من العطية. وتقوى الله يا بني فهي الانتهاء عن كل ما حرم الله من جميع كبائر المعصية، وطاعة الله والمصير إليها، والإيثار لها، والصبر عليها، والنجاة في الدنيا والآخرة لها، من كل عظيمة وبلية.

ألا ترون يا بني كيف يقول الله سبحانه لرسوله وهو يذكر ما الرسول عليه من طاعته وحبه، فأمره تعالى أن يقول لأتباعه وأصحاب فيما كانوا يزعمون أنهم عليه من حب الله تعالى، فقال الله لنبيه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، ثم أخبرهم بالذي يتبعونه عليه، وما الحب لله الذي أمرهم به، فقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:٣٢]، فخبَّرهم تقدَّس ذكره أن من لم يطعه ويطع الرسول فقد كفر، وأنه لا يحب إلا المطيع له ولرسوله، يبين ما ذكرت لكم في آخر قول الله سبحانه هاهنا، فآخره موصول منه سبحانه في هذا الأمر بما قبله من القول، بيَّن فيه أن الحب له طاعته وطاعة رسوله، ثم قال سبحانه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ [آل عمران:٣٢] يعني سبحانه: فإن أعرضتم وتوليتم عن طاعتي وطاعة رسولي التي بها أُمرتم فإن الله لا يحب الكافرين.

فعليك يا بني بطاعة الله وتقواه، وبغض معصيته وعداوة من عصاه، فتنجوا بإذن الله يا بني بطاعة الله من كل بلاء وشر، وتظفروا بالفوز والملك الباقي الأكبر، من ثواب الله لمن أحبه الله بالطاعة، وتنجوا يا بني بتقواه من عذاب النار والخلد فيها، الذي حل بأهل المعصية ومن تهاون بأمر الله فعصاه وخالفه.

فحرموا على أنفسكم في أيامكم القصيرة، ومدة حياتكم اليسيرة، ما حرَّم، واتقوه بالانتهاء عن معاصيه وعظايمها وكبائرها التي عظَّم، فإنه لم يحرم سبحانه إلا خبيثا قبيحا، كتحريمه لحم الخنزير والميتة، وحرم الدم المسفوح، فأي خبيث أو ممقوت منتن غثيث أخبث من الميتة والدم المنتن المسفوح؟! وكذلك ما حرم من الخنزير لنتنه وقبحه، فهو أقبح من كل مقبوح، وقد عوض بتحريم لحم الخنزير والميتة والدم إحلال ما لا يحصى من لحوم الطيور والدواب والبهائم.

[وصيته باجتناب الزنا]

وحرم سبحانه الفاحشة من الزنا، فإن الزنا - يا بني - عند الله من أكبر الكبائر، وأعظم الفحشاء، لما في ذلك من فساد الأنساب، وخراب الدنيا، والدَّخل في الأولاد والأرحام، وبطلان ما حكم الله به في ذلك من الأحكام، فليس في الزنا إربة في شهوة إلا وفي النكاح أفضل منها، بل في الزنا أعظم المعصية في مواقعه الفاحشة العظمى الكبيرة، التي قد أكد الله النهي عنها، وإنما يزني الزاني بمرأة من النساء قد أحل الله بالنكاح أجمل منها جمالا، وأفضل منها حالا، والحمل فيما يتوق إليه الرجل من المرأة كمالا.

فلو لم يحرم الله الزنا في كتبه جميعا، لكان في العقول أنه لا يجوز ولا يحسن ولا يصلح في معقول جميع البشر كلهم معا، أن يأتي فاسق ظالم متعد في حرمة غيره ما يكره أن يؤتى إليه في امرأته وحرمته.

كيف وقد حرم الله الزنا في جميع كتبه وأحكامه، وحَرَّمته جميع رسله؟!

فالحذر له الحذر، فإنه من أعظم ما نهى الله عنه وزجر، والبعد منه البعد في الكبر والصغر، فإن الله وله الحمد قد عصم أباكم منه صغيرا وكبيرا، فلم يات ولله المنة عليه في ذلك زنا قط جهرة ولا سرا.

قال الله تبارك في الزنا وتحريمه، والنهي عنه وتعظيمه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢] [1]، وقرن الزنا بالكبائر والفواحش العظام الكبار، التي وعد عليها وعليه الخلود في عذاب النار، فقال في الزنا وفيها، وفيما وعد من العذاب عليه وعليها، وقرنه بالشرك وعبادة الأصنام، وقتل النفس - التي نهى الله عنها الحرام - وهو يصف حال من نجا من عذاب النار، من أوليائه وأهل طاعته الأبرار، وأن صفتهم وما به نجاهم الانتهاء عن هذه المعاصي العظائم الكبار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩]، فحرم الله قتل النفس إلا بالحق، وحرم قتلها ظلما، وأحله إذا كان المقتول كافرا ظالما، ولم يحل الزنا في فقر ولا غنى، ولا أباحه قط سرا ولا علنا.

فالحذر له الحذر، والهرب منه الهرب يا بني، فإن الله قد أغناكم عنه غنى واسعا، موجودا بالنكاح لكرايم النساء، وجعل منه بدلا في كل ناحية وفج من

---

(١) في المخطوط: ﴿... إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾. ولا يوجد آية بهذا اللفظ.

فجاج الدنيا، بالأزواج الحلال الحسان، بالمهور اليسيرة، والأثمان في ملك اليمين القليلة، قال الله سبحانه وتعالى في صفة المؤمنين، وهو يخبر منهم عن الناجين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١ - ١١]، فأخبر الله سبحانه وتعالى في هؤلاء الآيات أن من فعل فيها وفيما وصف منها ما به أمر، وانتهى عما نهى عنه في هؤلاء الآيات وازدجر، كان عنه سبحانه راضيا، وجعله للفردوس في جنات النعيم دارثا، وكان فيها باقيا مخلدا.

فماذا يا بني في هذه العشر الآيات؟ من الوصايا من الله الشرائف الكريمات؟ فأي وصايا لا تبلغها وصايا؟! وقد أمرت بفضائل الخيرات والمكارم، ونهت عن منكر جليل من فاحش البلايا.

وكم يا بني لسيدي وسيدكم، ومولاي ومولاكم، في كتابه من هذا القرءان العظيم الذي نزل على نبيه من وصية ووصية جامعة؟ وعظة بالغة وعظات حكيمة نافعة؟ فقفوا إذا قرأتموه على وصايا الله فيه الجامعة، تعرفوا إذا وقفتم وتفهمتم الأمور كلها الضارة والنافعة.

[التحذير من اللواط]

واحذروا يا بني - عصمكم الله - الخطيئة والفاحشة العظمى، التي ليست خطية ولا فاحشة أعظم منها فوق الأرض ولا تحت السماء، وهي الفاحشة

الكبرى، وقد نهى الله عنها وزجر في مواضع كثيرة من القرءان، نهيا وتحريما مؤكدا مكررا، وهي من أنكر المنكر، عند من آمن وكفرن من كل أسود وأحمر، وهي إتيان الذكور، وذلك عند الله من أفحش الكبائر والشرور، ولو لم ينزل الله من ذلك نهيا وتحريما، لكان ذلك في معقول البشر والخلق كلهم جميعا حراما، وخروجا من المعقول كبيرا، فضيعا قبيحا هائلا منكرا، أن يكون ذكرٌ يركب وينكح ذكرا، لأن الذكران إنما خلقهم الله لمزاوجة الإناث، لما في ذلك مما أراد الله سبحانه بالناس من النماء والتناسل والكثرة والإنبثاث، فاعلين لا مفعولا بهم، والفعل منهم إنما أحله الله لهم في أزواجهم وملك أيمانهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١]، وقال في تحريم إتيان الذكور مرددا، وفيما عاقب به من فعل ذلك وما هو عليه من سخطه لمن أتاه موكدا، وهو يذكر عن نبيه لوط، وما كان من إنكاره على قومه لهذا الذنب العظيم عند الله المسخوط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٨٠ - ٨١]، وقال: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وقال سبحانه عن لوط، صلى الله عليه وسلم فيما كان ينهاهم عنه من الذنب الأعظم المسخوط: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ﴾ [النمل:٥٤ - ٥٥]، وقال سبحانه وهو يخبر عن تدميره لهم، وما عذبهم به من الخسف بهم، ورميهم بالحجارة قبل الخسف، وما حل بهم

من الدمار والحتف: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود:٨٢ - ٨٣].

[أحاديث وآثار في اللواط وعقوبته]

وفي الخبر الثابت الصحيح وما أنزل الله عليهم من الحجارة والعذاب الأليم: ((أن ملكا من الملائكة أُمر بقلع أرض قوم لوط، سخطا من الله سبحانه عليهم فيما كانوا يأتون من عظيم الفاحشة، فقلع أرضهم بهم من أسفلها، وحملها بهم على جناحه عند الصبح حتى أقلها، وأمر الله نبيه لوطا أن لا يلتفت إليهم، لأن لا يرى عقوبتهم وهولها فيفزع صلى الله عليه وسلم ويذعر، لما يرى بعذابهم من الفضاعة والهول الأكبر وذلك أنه ذُكر أن الملك لما قلع أرضهم بجناحه وهم فوقها، رماهم الله بحجارة من سجيل وهو يقلبهم وأرضهم في الهوى، ورُموا فيما ذُكر من الأخبار بشهب من النيران فأشعلتهم، وأخذتهم الحجارة من السجيل فرضختهم، ثم قلب الملك حين علا بهم في الجو أرضهم، فجعل عاليها سافلها عقابا لهم))[1].

فأي أمة بجرم أو ذنب ممن أهلك من الأمم دمروا بمثل هذا التدمير؟! وعذبوا لشدة سخط الله عليهم بمثل هذا العذاب الهائل الكبير؟!

وكذلك ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ((أتي بذكرين من الرجال أتيا الفاحشة من اللواط، فأمر بهما فرفعا إلى أعلا سورِ حائطٍ عالٍ، ثم نكسا فطرحا إلى الأرض من فوق السور، وأتبعا الحجارة رميا

---

(١) لم أقف عليه.

))، حكما منه عليه السلام فيهما بمثل ما أمكنه من تشبيه عقوبتهما بما فعل الله بقوم لوط في مثل فعلهما وخطيئتهما [١].

وجاء الخبر المنقول الثابت الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((اقتلوا الفاعل والمفعول به)) [٢]. ولم يجعل لقتله تأخيرا عنه، ولم يأمر فيه بضرب ولا حد من الحدود إلا القتل.

والحذر الحذر يا بني في الحداثة من أسنانكم والكبر، لهذه الخطيئة العظمى والذنب الأكبر، فإنه عند الله سبحانه من أكبر الكبائر وأنكر المنكر، فاحرسوا منها أنفسكم وذراريكم، واحذروا أن يخلو بهم في صغرهم أحد ممن تجهلون خبرهم من جميع من يأوي إليكم، حتى تكمل عقول أولادكم، ويفهموا ما حرم الله عليهم، وما في هذا ومثله من عقوبة خالقهم وسخط بارئهم، لأن هذه العظيمة من الفواحش مما قد سلم الله والدكم - ولله المنة عليه - صغيرا وكبيرا منها، فلم يأت ذكرا ولم يأته ذكر - ولله المنة عليه - في ذلك الأكبر، وبالله عصمة من اعتصم، وسلامة من سلم.

---

(١) رواه الإمام الهادي في الأحكام ٢/٢٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص٣٠٧/ح٨٩٢، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٧/ح١٤٥٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٥٦/ح٢٥٦١، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٥٩/ح٤٤٦٢، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦٩/ح٢٤٢٠، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٩٥/ح٨٠٤٧، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص٢١٢/ح١١٥٢٧، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٣٢٢/ح٧٣٣٧، والدارقطني في سننه ج٣/ص١٢٧/ح١٤٣، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٥٦٦/ح٥١٦، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٣١/ح١٦٧٩٤، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٣٤٨/ح٢٤٦٢، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٠٠/ح٥٧٥، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٠٨/ح٨٢٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ص٣٦٥/ح١٣٤٩٤، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٨/ص٢٣٤/ح٨٤٩٧.

[التحذير من الخمر]

واحذركم يا بني ثم احذركم، وأنذركم يا بني عصمكم الله ثم أنذركم، الخطيئة المحرمة في كتاب الله، وهي باب إذا أدخله إبليسُ العبدَ طرحه دخولُه في كل بلية من مساخط الله، فإنها أم الخطايا، وباب البلايا، الذي يفضي بمن دخله إلى كل شر، ويوقعه في كل فاحشة.

ومنكر هذه الخطيئة التي حذرتكم فهي ما نهى الله عنه وحرمه من شرب المسكر، فإن الله لم يحرمه إلا لما فيهم من الشرور، وما يحمل عليه ويصير إليه مَن شرَبَها من قبائح الأمور، فإن الله سبحانه قد بين العلة التي حرمها لها وسماها اسما جامعا، فأفهم سبحانه وأسمع من كان ذا فهم وعقل سامعا، أن العلة التي حرم لها الخمر، هي ما ذكر أنها تحمل عليه ويصير إليه مَن شرَبَها من قبائح الفعل والمنكر، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، فذكر تبارك وتعالى فِعْلَ الخمر، وما تحمل من شَرِبها من قبائح الأمر، عندما يصير إليه من السكر، وما يوقع سكر الخمر بين مَن سَكِرَ بشربها من العداوة والبغضاء، والنسيان لذكره، وما يصد به السكر مَن سَكِرَ عن الصلاة والذك.

فزعم مَن فَسَقَ من سفهاء هذه الأمة، ومَن جهل اللسان العربي من هذه العامة، أن الخمر إنما هي ما عمل من العنب، وليس ما قالوا في هذا بمعروف في اللسان عند العرب، إنما الخمر عند العرب في عربي اللسان، وما يفهم عند العرب في البيان، ما خمر بالتعفين حتى أسكر، وقد يخرج اسم الخمر في اللسان أن يكون ما أفسد العقل وخامر، فكل مخامِر للعقل بالاسكار من الأشربة فهو خمر، والمخامرة فهي المخالطة، فما خالط من الأشربة العقل بالاسكار وخامره فهو خمر مخامِر، وكذلك يفعل في المخامرة للعقل كل شراب مسكر، فما

خامر وأسكر العقل كمخامرة الخمر وإسكارها فَفَعَل فعلِها، كان عند كل مَن فهم عن الله مثلها، وإنما حرمت الخمر لمخامرتها للعقل بالإذهاب والسكر، وما يحمل عليه من الإثم والشرور والمنكر.

ولا فرق بين إسكار الأنبذة والخمر، بل النبيذ أشد للعقل إذهابا ومخامرة وإسكارا، فيما أخبرني به مَن شربهما جميعا ممن يدعي ملة الإسلام وممن سألته من النصارى، فكل هؤلاء يزعمون أن النبيذ إذا شربوه كان أشد في السكر من خالص الخمر، والنبيذ فيما يقولون أشد للعقل مخامرة بالفساد والسكر، وأَحْمَلُ لمن شربه على أبواب الفضائح والفجور والكفر.

[تحريم الخمر في السنة]

وفي الخبر المنقول الذي لا شك فيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((حرم كل ما أسكر قليله، كتحريمه من كثيره، وأنه أقام الحد على من شرب الخمر، وعلى الشارب لغيره من النبيذ نبيذ الفضيخ[1] والتمر))[2]، فأجرى هذه الأشربة كلها التي تسكر مجرى الخمر، لأن فعلها فعل واحد في المخامرة للعقل بالإذهاب والسكر، وما تحمل عليه وتوقع فيه مَن شربها من الفجور والإثم والشر.

فأجمعوا جميعا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام))[3]، وأنه صلى الله عليه وآله: ((حدَّ مَن شرب النبيذ والخمر

---

(١) الفضيخ: عصير العنب، والعنب المفضوخ: المشدوخ.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الهادي في الأحكام ٤٠٩/٢. وأخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣٠١/ح٥٦٠٧، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٢٠٤/ح٥٣٨٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٣/ح١٨٦٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢٥/ح٣٣٩٢، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨١، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩١/ح٥٦٤٨، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٤٦٧/ح٥٧٤٨، والطبراني في

حدا واحدا دج)) [١]، وكذلك ذكرت العامة عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: ((الخمر من خمسة أشياء: من العنب والتمر والبر والشعير والعسل)) [٢]، فأجرى هذه الخمسة الأشياء الخمسة إذا عمل منها المسكر مجرى الخمر وسماها خمرا.

وقد أخبَرونا غير مرة أن الخمر في اللسان العربي: الشراب المخامر، المخالط للعقل للإفساد والسكر.

وذكر أن عمر بن الخطاب قال في ابنه عبيد الله بن عمر: ((بلغني أن عبيد الله وأصحابا له شربوا شرابا لهم لأسألن عنه، فإن كان يسكر حددته وحددت أصحابه حد الخمر، فسأل عنه عمر فأُخبر أنهم شربوا شرابا يسكر، فلم يسأل عن الشراب قليلا شربوا منه أو كثيرا، وحد ابنه عبيد الله وأصحابه)) [٣]، ورأى الشراب إذا كان يسكر خمرا.

معجمه الكبير ج٤/ص٢٠٥/ح٤١٤٩، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥١١٧، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٥/ح٤٨، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٣٩٩/ح٩٤٩، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٦/ح١٧١٦٧، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٩/ح٨٦٠، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٧٢/ح١٦١٦.

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن ابن عمر قال: خطب عمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد ألا وإن الخمر نزل تحريمها يوم نزل وهي من خمسة أشياء: من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والعسل، والخمر ما خامر العقل، وثلاثة أشياء وددت أيها الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيها الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢١٢١/ح٥٢٥٩، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣٢٢/ح٣٠٣٢، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٥/ح٣٦٦٩، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٢/ح٣٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٨٩/ح١٧١٢٥.

(٣) لم أقف عليه.

وأجمع أهل المدينة وفقهاءوهم وغيرهم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أُتي برجل شرب مسكرا لم يذكروا أنه كان خمرا، فلما أيقن صلى الله عليه وآله وسلم أنه شارب، وذلك أنهم ذكروا في الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالرجل أن يُستَكْنَهُ ويُشم ريح الشراب منه، فلما أُخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن ريح الشراب موجود من الرجل، ثم لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثرَ مِن شربه أو أَقلَّ، وحكم عليه بأن يضرب حدا، ودعا بالسوط وأتي بسوط يابس قاحل، وإنما كانت السياط حينئذ تُعمل من جلود الإبل، فخشي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن ضَرب بذلك السوط أن يقتله، و لم يرد قَتْلَه صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أراد أن يؤدبه وينكله، فقال: ائتوني بسوط دون هذا، فأتي بسوط ليس بالقاحل اليابس، ولا بالمارن المفرط في اللين، فأمر بالرجل فحد وجلد في ظهره ثمانين)) [١].

فاحذروا يا بني ثم احذروا شرب الكثير والقليل بل أقل القليل من كل شراب أسكر، فإن الشراب المسكر باب كل بلية وفسق وفجور وشر.

ولا اختلاف بين هذه الأمة، الخاصة منهم والعلماء والجهلة من العامة، أن السكر حرام، ثم ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) [٢]، وحرم الله الخمر التي تخامر العقل بالسكر.

---

(١) عن أبي إسحاق قال: ((إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتي برجل سكران فقال: يا رسول الله إني لم أشرب خمرا، إنما شربت زبيبا وتمرا، فأمر به فضرب الحد ونهى عنهما أن يخلطا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ص٧٨٣/ح٢١٣٠، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٦/ح٥٠٦٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٦٢/ح١٩٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

وأجمعت الأمة على تحريم قليلها وكثيرها، وما الخمر في الإسكار، وما تحمل عليه من المعاصي الكبار، إلا كغيرها.

وقد ذكرت علماء العامة والخاصة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التغليظ في النهي عن شرب المسكر والتحريم لكل ما أسكر، فإنه قال عليه السلام في الشارب: ((إن شرب فاجلدوه، ثم إن عاد فاجلدوه، ثم إن عاد فاجلدوه، فإن عاد فاضربوا عنقه)) [(١)]. فأجرى صلى الله عليه وآله وسلم في حكم الله وحكمه بعد ثلاث مرار وشرب الرابعة مجرى أهل الكفر والجحدان والمعاندة، فأباح دمه ولم ير له حرمة المؤمن، ولا من هو على الملة.

وروي عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من الحنطة خمر، ومن الشعير خمر، ومن التمر خمر، ومن الزبيب خمر، ومن العسل خمر)) [(٢)].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣١٣/ح٥٦٦١، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٢٩٥/ح٤٤٤٥، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٠/ح١٤٤٤، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٥٩/ح٢٥٧٢، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٦٤/ح٤٤٨٢، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص١٣٦/ح٦١٩٧، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٤١٢/ح٨١١٢، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ص١٦١/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٠٧/ح٢٣٣٧، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٢٨/ح٦٢٠، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٢٧/ح٥١٧١، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص١٤٧/ح٢٣٥، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٣١٣/ح١٧٢٧٨، وأبو يعلى في مسنده ج١٣/ص٣٥٣/ح٧٣٦٣، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٥٥/ح٤٠٨، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٠٦/ح٢٧٦٥، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٢/ح٨٣١، والشافعي في مسنده ١/ص٢٨٥/ح٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ص٢٤٥/ح١٧٠٨١، والدارمي في سننه ج٢/ص١٥٦/ح٢١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٦٨٨/ح٤٣٤٣، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣٢٢/ح٣٠٣٢، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٨٨/ح٥٥٤٤، وابن حبان في صحيحه

وروي عن علي عليه السلام أنه قال: ((الخمر من خمسة أشياء: من التمر والزبيب والحنطة والشعير والعسل)) [١].

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قام على المنبر بالمدينة فقال: ((يا أيها الناس نزل تحريم الخمر حين نزل وهي من خمسة أشياء: من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير)) [٢]. والخمر ما خامر العقل.

وروت العامة جميعا لا اختلاف بينهم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) [٣]، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كل مسكر حرام)) [٤].

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من مات وهو مدمن خمر لقي الله وهو كعابد وثن)) [٥].

ج١٢/ص١٧٦/ح٥٣٥٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٨/ح١٨٧٥، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٥/ح٣٦٦٩، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٩٥/ح١٣١٥٩، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٠٦/ح٥٠٦٧،

والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٤٨/ح٥، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٢٤٥/ح١٢١٩١، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦٨/ح٢٥٣١، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٧/ح٨٥٢، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٦٧/ح٢٣٧٥١، والدارمي في سننه ج٢/ص١٥٤/ح٢٠٩٦، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٣/ح١١٠٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه الهادي في الأحكام ٤٠٨/٢. وأخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١١٢٠/ح٣٣٧٥، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٧٢/ح٢٤٥٣، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٥٩٢/ح٥٤٩.

وذكر عن حرثن بن عبد الله اليزني عن ديلم الحميري، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ((يا رسول الله أنا بأرض باردة نعالج فيها علاجا شديدا، وإنا نتخذ شرابا من القمح نتقوى به على أعمالنا، وعلى برد بلادنا. فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فاجتنبوه. ثم جئته من بين يديه فقلت له مثل ذلك. فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فلا تشربوه. قلت: يا رسول الله فإن الناس غير تاركيه! قال: فإن لم يتركوه فاقتلوهم)) [١].

وروى ابن علية، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((كل مسكر حرام)) [٢]. قال: وقال ابن عمر: ((كل مسكر خمر)) [٣].

وروي لنا بعض المحدثين عن أبي بكر، عن وكيع، عن الأوزاعي، عن أبي كثير، أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((الخمر من هاتين الشجرتين العنبة والنخلة)) [٤].

(١) خرجه أبي داود في سننه ٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨٣، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٣٢/ح١٨٠٦٣، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٢٢٧/ح٤٢٠٤، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٣٤/ح٥١٩٩، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٢/ح١٧١٤٣، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٦٦/ح٢٣٧٤٢، و ابن أبي شيبة في مصنفه ج٥/ص ٦٦/ح ٢٣٧٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج٣/ص١٥٧٣/ح١٩٨٥، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٩٤/ح٥٥٧٣، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص١٦٤/ح٥٣٤٤، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٨/ح١٨٧٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢١/ح٣٣٧٨، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٧٩/ح٧٧٣٩، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٤/ص٢١٢/ح٠، ٤/ص٢١٥/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٥/ح٢٥٦٩، والنسائي في سننه الكبرى

وحدثنا بعض المحدثين عن جعفر الرماني قال: حدثنا علي بن قادم، قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو القرشي الجزري، قال: حدثنا زهير، قال: حدثنا حميد الطويل، عن أنس، عن أبي عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وسهيل بن البيضاء: ((أنهم كانوا في نفر من أصحابهم في بيت أبي طلحة وأنس يسقيهم، حتى كادأن يأخذ فيهم الشرابن قال: فمر رجل من المسلمين فقال: ألا هل شعرتم أن الخمر قد حرمت؟! قال: فوالله ما قالوا حتى نتبين أو نعلم، قال: فقالوا يا أنس اكفأ ما بقي في آنيتك، قال: فهرقتها قال: فما عادوا فيها حتى لقوا الله)) [1]، قال: وإنما كان الشراب من البسر والتمر. قال أنس: هي كانت خمرنا يومئذ.

وحدثني بعض المحدثين، قال: حدثنا جعفر الرماني، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن محارب بن زياد، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((الزبيب والتمر هي الخمر)) [2].

حدثنا بعض المحدثين، عن جبير بن عبد الواحد، قال: حدثنا عباد بن يعقوب، قال: حدثنا خالد بن حيان الجزري، عن زيد بن راشد، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من شرب مسكرا نجس ونجست صلاته أربعين يوما، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد

ج٣/ص٢١٠/ح٥٠٨٢، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٠/ح١٧١٢٧، وأبو يعلى في مسنده ج١٠/ص٣٩٩/ح٦٠٠٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ص٧٨٣/ح٢١٣٠، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٦/ح٥٠٦٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٦٢/ح١٩٤٠.

الرابعة كان حقيقا على الله أن يسقيه من طينه الخبال)) [١]. قال خالد بن حسان: عن زيد بن راشد، عن الحسن، عن أبي سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((مسكر أو لم يقل خمرا)) [٢].

ولكفى من الخبر في تحريم الله من الأشربة لجميع السكر بقوله سبحانه في التنزيل، وهو يذكر النعمة فيما أخرج لعباده من ثمر الشجر المأكول: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧]، فقدم السكر، وأعلم عباده أنه عنده من المسخوط المنكر، بكلام بليغ عند العرب يفهمونه من المقدم والمؤخر، لأن ذكر السكر في هذه الآية بعد ذكر النعمة في مأكلول الثمر، من الكلام المفهوم عند العرب تقدم أو تأخر، كأنه عنى سبحانه: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧]، تذكيرا لهم بالنعمة في حسن الرزق، ثم قال: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾، سخطا منه تعالى بما يصرف الثمر إليه أهل الفسق من تهيئته مسكرا، إذ كان السكر عند الله مسخوطا منكرا، وإنما نزل القرءان باللغة العربية التي هي أبلغ عند العرب في البيان، فيُؤخر عن موضعه ومعناه متقدم مع أول الكلام في مكانه، إذ كان ذلك أبلغ في اتساق بلاغة اللسان، وما هو عند

---

(١) عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)).
أخرجه أبي داود في سننه ٣/ص٣٢٧/ح٣٦٨٠، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٨٨/ح١٧١٢١.

(٢) لم أقف عليه.

العرب أجود في تصريف نظم البيان، كقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه:١٢٩]، فأخر هذا الكلام مع أوله، وإن كان قد دخل بينه نظم البلاغة وفرَّق بين فواصله، فإنما أراد تبارك وتعالى: ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما.

ففي هذا يا بني ما نبهكم وكفاكم، فالحذر من قليل شرب المسكر وكثيره، لما هو مسخوط محرم عند ربكم ومولاكم.

فالحذر يا بني من المسكر قليله وكثيره الحذر الحذر، فإنه حبالة إبليس التي أوقع بها من لا نظر له لنفسه من الخاصة والعامة في كل منكر، وفجور وشر. ولو لم يترل الله عنه نهيا ولا فيه تحريما، لكان السكر والمسكر عند كل ذي لب عاقل منكرا عظيما، لما يصير إليه مَن شربه من فُقدِ عقله، والافتضاح بذهاب فهمه وحيله، وكشف عورته والتمرغ في سلحه وبوله، مع ما هو أعظم من ذلك عظما، من إتيان الفجور عند السكر الذي جعله الله مسخوطا عنده محرما.

فلم أعلم - والحمد لله - لكم أبا ولا جدا إلى علي عليه السلام أعلمه يشرب قط نبيذا ولا مسكرا، بل كلهم يرى ذلك من أكبر الفواحش منكرا، ومن عظائمها وكبائرها فسقا وخبثا وشرا. تولاكم الله يا بني بالانتهاء والإزدجار والحذر والاجتناب والاعتزال لكل ما أسخط خالقكم وربكم ذا الكبرياء والعزة والجلال، وسلمكم الله مما قد عم أهل زمانكم ودهركم من الشرور والحيرة والخذلان بارتكاب كبائر المعصية، وما يستبيحون بجهلهم وظلمهم لأنفسهم وقلة يقينهم بما حذروهم الله من عقابه من المنكرات والفواحش المهلكة المردية.

[اعتزال المدن]

فليس النجاة لكم ولمن معكم إلا الهرب في البوادي والأودية والجبال منهم، والتحبب إلى خالقكم بهجرهم والبعد عنهم، فإن في مساكنتهم والاختلاط بهم

فساد القلوب، والخبال الأكبر، لما هم عليه وفيه من فعل كل فجور وفسق وشر، إلا أقل القليل منهم.

فالهرب الهرب والبعد البعد عنهم، فإن المدن والقرى موضع اللؤم والشر والبلايا، بما تجمع وتضم من شرار الناس والأوغاد، وما ينضم فيها ويأوي إليها من أخلاط الأجناس، وسقاط شرارهم من كل بلاد فيها، وفيها سقاط الأمم، ورذلات العرب والعجم، من حمران الأجناس وسودانهم، المغتربين عن بلدانهم وأوطانهم، والمختلفين في عقولهم وهممهم، وألوانهم ومذاهبهم، وأخلاقهم ودياناتهم، فالحياء والاحتشام عندهم وبينهم مرفوض ومطروح، وكلهم فغريب عن بلده وموضعه لا يستحي من خنا ولا خزي أتاه وركبه ولا فضوح، ولكل جنس منهم ضمته هذه القرى والمدن في بلده وأصله طباع وخلق، وهو عندهم كيِّس محمود، وعند من يعقل همج قبيح، فلسودانهم في الطرب والزفف واللعب والمنازعة إلى ما يغلب على طباعهم في بلادهم من الشرور وقبايح الأمور، ما لا يبلغه في الطرب والزفف واللعب نواهق الحمير، والحُمران أجناسهم مذاهب أخرى، كثيرة لا تحصى، من كل شر وبلاء، وفسق ومجون وخنا، من إتيان كثير منهم للذكور، وشهوة من لا تشتهيه الحمير، ولا البهائم الخنازير منها ولا غير الخنازير، من إتيان الذكران، وهذا البلاء.

وهذه الفاحشة العظمى، فيما بلغني فأصلها وبدؤها ومخرجها من أرض العراق وفارس وخراسان، إلا من عصم الله من الأمم، أو من كفّه ورَدَعَه عن ذلك دين وورع وطباعُ كرم، مع ما تضم المدن والقرى من عساكر المتغلبة والسلاطين، وما يضم إلى العساكر ويأوي إليها من سقاط الناس والأجناس والشياطين وما في المدن والقرى من منكرات الفواحش والبلاء، واستجازتهم كبارهم وصغارهم اللفظ بالفحش والخنا، فهو بين كبارهم وصغارهم عادة

قد أَجْرَوا أنفسهم عليها، لا يستوحشون منها، ولا يعظمونها ولا يتناهون عنها.

فالمنكرات بينهم لإكثارهم منها ولجاجتهم فيها معروفة، والقبايح لظهورها بينهم لا يستوحشون منها بل هي مألوفة، والغالب على كل مكان عند القرى والمدن والسفساف والسفل، الذين لا يستحيون من غي ولا ردى، ولا من فضائح العمى، يبولون ويتغوطون على أبوابهم وفي أفنيتهم، ولا يطهرون ما يسكنون من بيوتهم، ويكشفون في أفنيتهم وأزقتهم البول والخلاء وما أمروا به من ستر عوراتهم، فهم كالبهائم التي لا تنطق ولا تعقل، وكل من لم يتنح عنهم ويبعد منهم، فهو مشارك لهم في سوء فعلهم، وآثم ظالم لنفسه في مجاورتهم والاختلاط بهم، لأن أقل ما لله عليه إذا لم يمكنه الإنكار على مَن يُسخطه سبحانه ويعصيه، فلم يستطع منهم من معاصي مساخط الله تبارك وتعالى أن يهاجر عنهم ويبعد عنهم، في أوسع أرض الله تبارك وتعالى قال في تنزيله ووحيه وما عهد فيه إلى عباده محذرا في تركهم أمره ونهيه، وهو يذكر من توفاه الملائكة ممن رضي من المستضعفين وغيرهم بمجاورة أهل الظلم والمعصية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء:٩٧].

فتفهموا يا بني قول ملائكة الله ربكم لمن ظلم نفسه بمساكنة من ظلم وعصى ربه، فإنما عنى بقولهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، أي: ما فعلتم في أيام حياتكم فيما أمرتم به من الإنكار على من جاهر بالمعصية خالقكم وربكم؟ فقال الظلمة الخاسرون عند الندامة والحسرة وهم يعذرون: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧]، فلم تكذبهم الملائكة فيما ذكروا من استضعافهم وضعفهم، وقالت الملائكة لهم محتجين عليهم لربهم، مبكتين لهم مُوقِّفين على ما ارتكبوا من

عظيم ذنبهم في المجاورة والمساكنة، وترك الانتقال عن أهل المعصية والمجاهرة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[النساء:٩٧].

ثم أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة الذين خاطبهم عندما توفتهم رسله من الملائكة، فذكر تعالى سخطه عليهم وحكمه فيهم، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝﴾[النساء:٩٧]، فلو لم ينزل الله نهيا عن مساكنة أهل المعصية لكان ينبغي لمن عقل أن يفر ويهرب بنفسه وولده وحرمه من مجامع الناس وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس في المدن والقرى، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، وهم أظهر الناس فسقا، وألأمهم لؤما، وأدقهم أخلاقا.

فالكرم والكريم يا بني في المدن والقرى عند أكثر أهلها غير مرضي ولا ممدوح، وذوا الدناءة والبخل واللوم عندهم مقبول مرضي غير معيب ولا مفضوح، وما بالقرى والمدن في الكبار والصغار من منكرات المجنون والشرور والفحشاء، أكبر وأعم وأظهر من أن يؤتى له على عدد وإحصاء، مع ما في المدن والقرى يا بني من فساد اللغة والكلام واللسان، واختلاط غثاء الناس مع الحمران والسودان، وتبرج الحرم، لفساد من بالقرى من العرب وسفساف العجم، فالغيرة من أهل المدن أو أكثرهم على الحرم متروكة مطروحة، والحرم بتبرجها في الأسواق والطرق مفضوحة.

فأف يا بني ثم أف لمن كان ذا حرية وكرم وأنف سكن في هذا الدهر المدن والقرى، ما دامت على مثل ما هي عليه من ذكرهم هذا من المنكرات التي ذكرنا فيها والفحشاء، وما غلب على أهلها الكبار منهم والصغار والنساء، من الخنا والفساد واللوم والزنا، والدناءة والنذلات والردى.

فأين أنتم يا بني عن طاعة ربكم؟! فيما أمركم به ودلّكم عليه من المهاجرة وترك المجاورة لمن يسخطه ويعصيه؟! والامتثال لمسالك أهل الشرف من

آبائكم وسلفكم وأولكم، في ترك المدن والقرى ومجاورة أهلها، والتنحي إلى البادية والاعتزال عن سفاف (١) القرى وغوغائها وسلفها.

[هجرة الإمام القاسم الرسي]

فأقرب مَن به في ذلك تقتدون، وبفعله في الهجرة عن أهل القرى والمدن تأنسون، جدكم الأقرب أبي وأبوكم القسم بن إبراهيم رضي الله عنه ورحمه، وقبل عزلته وهجرته منه، وقد كان رحمة الله عليه زمانا طويلا من عمره بالمدن مدن الحجاز ومدينة مصر ساكنا، داعيا إلى طاعة الله، فلما لم يسر في أهل القرى والمدن إلى طاعة الله ربه وحقه ومرضاته مستجيبا، ولم ير فيها إلا غرقا في الجهل والمعاصي لا تائبا إلى ربه ولا منيبا، ورأى القرى والمدن أصل كل منكر وضلال، وتجمع الفجار والفساق والأرذال الدناة والأفسال (٢).

تبرأ إلى الله منهم، وهاجر إلى البادية والجبال عنهم، فوفقه الله للصواب في ذلك وأرشده، وأراه له الخيرة في الدنيا دنياه وأسعده، فخلا بنفسه وأهله وولده، وجرى حكمه عليهم وعلى من تحت يده، فصار - نظرا واختيارا، بعد أن أحاط بالمدن والقرى وأهلها اختبارا - إلى بادية المدينة وجبالها، وتنحى عن المدينة وأهلها، وحل في جبل من باديتها، يسمى: (قُدْساً) (٣) فكان به حينا وكُنا به معه أطفالا صغارا، لا نعاين فسقا ولا فجورا ولا منكرا.

ثم انتقل إلى (وادي الرس) وجباله، فكان خاليا فيه بولده وعياله، ما أمرنا فيه من أمر أطعناه، وما عرَّفنا في الدين من حق أو قول في الهدى والصواب قبلناه.

(١) السفساف: الرديء من كل شيء.

(٢) الأفسال: الغوغاء من الناس.

(٣) قال الهجري: جبال قُدْس غربي ضاف من البقيع، وقد جبال متصلة عظيمة. وفاء الوفاء ١٢٨٧/٤.

ثم انتقل إلى فرع آخر من جبل يسمى: الأشعر من جبال جهينة، بعد أن أقام عمرا طويلا وسنين كثيرة في وادي مزينة، فكان منه بجبل وفرع يدعا: فــرع السور حتى توفي فيه رحمة الله عليه وقبض.

وكان قد عاهد الله وأعطاه من نفسه أن لا يسكن هو ولا أحد يطيعــه مــن ولده ما بقي حيا مجامع الناس بين المدن والقرى، لما ذكرت لكم يا بني قبــل هذا من قولي وفسرت، مما تجمع القرى والمداين من أهل الفسق والفــواحش والمنكر والردى، وما في أهل المدن والقرى والمداين من أهل الفسق والفواحش من الجهل والمعاندة في الدين، وما بها وما في أهلها من الفساد والمفســدين، وأهل المجاهرة بكبائر المعاصي والظلم المعتدين.

[طبيعة البادية وأخلاق أهلها]

فجعل الله الروح والراحة في بدنه، وأعقبه سكنى البادية واعتزالُ الناس العفافَ والصلاح في أهله وولده، فأقام في البادية والجبال قبل وفاته نحوا من أربعــين سنة، لم يخل فيها قط من لطائف الله وصنعه وسعة رزقه، مع البعد والتطهــر عن شرار خلقه، في أطيب مساكن من تلك الأوديــة الطــاهرة، والجبــال والبوادي الصحيحة البريئة من الوخامة التي تكون في المدن من الأرياح المنتنة والسكك القذرة والأزقة والطرق التي فيها غير طاهرة، وأبخزة الكــرابيس (١) والنجاسات المفسدة للجو والهواء، المورثة للأمراض والوباء.

بل كنا معه رحمه الله مع أطيب الغذاء مما يكون في البادية في أطيب المساكن والمَحالّ، من أودية البوادي والفروع التي فيها من الجبال، نتنسم صافي الهواء، ونشرب أكثر مدة دهرنا ماء الغمام والسماء، وننال فيها بلطف الله طيــب الغذاء، مما يكون في البادية من سمين لحوم الماشية، وما جعل الله في المواشي من

---

(١) الكرابيس: جمع كرياس، وهو الكنيف. سمي: كرياسا، لما يعلق به من الأقذار فيركب بعضه بعضا ويتكرس.

أشربة اللبن الخالصة السائغة، في أطيب الساحات طيبا، وأطهرها طهارة، وأفسحها منظرة، وأصفاها هواء، وأقلها كدرا، لا نسمع خنا، ولا نرى فسقا ولا منكرا، ولا صوتا معلونا، كُبرا [1] ولا وترا، مع قوم نختلط بهم أحسن قوم جوارا، وحرمهم فأشد الناس استتارا، من خير أبناء العرب وأهل البادية، أشكر قوم للمعروف شكرا، وآلفهم إلفا، وأحسنهم جوارا، ومن جاورهم فاعتزلهم، وكف الأذى والمكروه عنهم، كثر ثناؤهم عليه وشكرهم له، وسلم منهم، وكانوا له إذا أحسن قليلا إليهم، وبث أقل المعروف فيهم، كالخول والأعوان، إذا استكفاهم بعض الأمور كَفَوه، وإن استعانهم على نائبة تنوبه أعانوه.

[أخلاق أهل المدن]

وأهل القرى يا بني وسفساف من في المدن من سكانها كلهم تجارهم وصناعهم وغيرهم، وكذلك من اختلط بالأسواق والقرى من العرب وجاورهم، فهؤلاء كلهم ليسوا بذوي حرية ولا ذمام، ولا يتخلقون بخلق من أخلاق الكرام، ولا يوفون بموعد وعدوه، ولا يوجدون حق الجوار لمن جاوروه، وإن استعانهم جارهم على نائبة لم يعينوه، وإن وعدوه وعدا أخلفوه، وإن قالوا له قولا لم يَصْدقوه، وكلما كان عليهم فيه أدنى كلفة وأقلها لم يكتلفوه، وليس للجار عندهم غير الخداع له والمنافقة، فإنهم إذا لقوه تملقوه، وإن استرفقهم بسلف أو رفق لم يرفقوه، وكذلك كل من اختلط بالقرى والأسواق من العرب، فهو في اللوم ودقة النظر وسوء الأدب كأهل القرى والأسواق، يتخلقون بأخلاقهم، ويفسدون بفسادهم.

فالبعد يا بني عن أهل القرى والمدن لكم ولمن معكم خير من قربهم، وأسلم لكم في دينكم، وفيما بين ربكم وبينكم، وليست العزلة عن المواضع التي تجمع

---

(١) الكُبْر: الطبل.

أخلاط الناس، ويحيط بكم ما فيها من شرور الأشرار، وما فيهم من الدنس والأنجاس، كالبوادي التي تتسع بأهلها، وتضم من فيها من سكانها، كما تجمع القرى وتضم وتخلط بين من فيها من رذالة اشرارها وسفلها، لأن كل ساكن في البادية فهو وحده يمكنه أن يكون في عزلة وناحية.

وسكان القرى متضامون في السكك والدور مجتمعون، يرى بعضهم ما في بعض من الفساد والمنكر والشرور، ويأنس بعضهم ببعض فيما يفعلون من منكرات الفجور، ثم لا يجد من يسكن بينهم بدا من مضامتهم ورؤيتهم ومعاينة فواحشهم وفسقهم، وما يبتلى به من سوء جوارهم، ونذالة أخلاقهم، ولؤم كبارهم وصغارهم، واستحسانهم بينهم للؤم الأخلاق، وقلة إنكارهم للدناءة والخنا، وما فيهم من فواحش الريب والبلاء، أعظم وأكبر من أن يؤتي له على صفة أو يحصى، يتكلم سفسافهم، وأهل أسواقهم، وأكبر كبارهم وصغارهم، بأفحش الفحش وأعور الكلام علانية جهارا، فلا ترى أحدا منهم أنه يجب عليه أن يكون منه لما سمع من ذلك إنكارا، فنساؤهم وأكثرهم في الأسواق متبرجات، وأكثر اللواتي لا يخرجن متطلعات من الكوى والأجنحة غير مستحييات.

فلم تروا يا بني هذا ومثله ظهر في القرى وعم؟! حتى لا ينكره منكر من أهل القرى ولا يحتشم منهم محتشم، فأنا أخبركم يا بني لم كان هذا في المدن والقرى بلا غلط ولا توهم، وذلك إنما هو لأن القرى والمدن تجمع وتضم من رذالات الأجناس، وحشو سفساف الناس، وسقاط العجم وشرارهم، فيختلطون ويجتمعون غرباء عن أوطانهم وبلدانهم، فمنهم من هو مملوك مرقوق، ومنهم من هو غير مملوك وهو لئيم الأصل، قليل الحياء للمجنون والدناءة والجفاء والمروق، والعتاوة والفسوق، فقد اختلطوا وماج بعضهم في بعض، فملوا بالشرور لقلة الحياء، ولؤم الأمهات والآباء، ولأن بعضهم لا يعرف بعضا، جميع القرى في الأرض ومن اختلط بهم، ممن كان له أصل أو

نسب من قريش والعرب، أو من له حرية نفس من العجم، أو من كرام أجناس الأمم، فلغلبة من ذكرنا من القرى من سقاط الناس، ورذالة الأمم والأجناس، قد غمر هؤلاء في كثرتهم وقلوا، وصار العدد والمال واليسر، والرذالة والسفل، وافتقر كل من له حرية وقل عددهم، وصار من له أصل ودين بين هؤلاء الذين قد ذكرنا قد خمل وذل، لأن الغلبة في الدنيا الدنية، وهذه الدار الأولى من الدنيا الدنية، إنما هي للحشو الأكثر في العدد، ولا سيما إذا لم يكن لسلاطين الحق والعدل على السفساف والرعاع بحكم الله يد.

فالناس اليوم يا بني في مدن القرى مختلطون، يموجون ويختلط بعضهم في بعض كما تموج أمواج البحر بالماء، ليس فيهم ولا منهم محق يقوى عليهم، وأحكام الله وآدابه في كتابه لا تنفذ فيهم، فقد اختلط عِلْية [١] من في المدن والقرى بسفلهم، وطال اختلاطهم وثواهم [٢] بينهم، حتى جروا على سيرتهم، وصاروا لا يستقبحون قبيحا، ولا يرون دناءة ولا فاضحا فضوحا؛ والإلف للغلبة السفلة، وصارت السفل لكثرتهم وغلبتهم قد رهقتهم الذلة، واحتاج هؤلاء الذين لهم أصول وحرية إلى أولئك، فكلهم في مذهبه وخلقه هالك.

قد استحس من في القرى والمدن من بقايا كرام الناس، ما يستحس مَن غلب على المدن والقرى من سفل الأجناس، لغلبة الغوغاء والرذالة وسقاط الأمم والسفلة على القرى وكثرة عددهم فيها، فقد غرق بينهم وخزي وذل وقل كل من آوى إليها من أهل الدين والحسب، وكاد أن يبطل بل قد بطل كل ذي دين ونسب.

فالمهرب المهرب يا بني من القرى والمدن، الهرب الهرب، فلو لم تهربوا منها وتباعدوا إلا لِذلّ الأحرار وفقرهم بها، وأن السفساف ومن لا خطر له ولا

---

(١) عِلْية القوم: كبارهم ومقدموهم.

(٢) الثوى: المقام.

دين قد غلبوا وكثروا وحازوا جميع معايشها، فذكرهم بالقرى والمدن الذكر الرفيع العالي، وفيهم اليسر والثروة والعدد والأموال، وتوارثوا مع ذلك الحيرة في الدين والضلال، ممن كان قبلهم في القرون الخوال، من أهل الشرف في أخلاقهم، والعلو في ولادهم وأنسابهم، لأمور عرضت من حسد وضغائن حالت بينهم وبين طاعة ربهم، لا يمكننا شرحها كلها، ومَن فَهِمَ فروعها فتدبرها فهم أصولها، فقد اشتبه أهل الأرض في معصية الله ورسوله، ومخالفتهم لأنبيائه صلوات الله عليهم وتتريله، فلكهم أو أكثرهم ضال عن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وآله، في مذهبه واعتقاده وقوله وفعله.

[أسىً وتوجع لفساد الزمان]

فيالها حسرة ويالها مصيبة في الإسلام ما أعظمها وأجلها!! ويالها أمة من العرب والعجم ما أغفلها عما أمرت به في كتاب ربها!! وما أبطلت من حدود الله ونبذت من عهوده لحيرة جهلها!! وما لَبَّسَتْ عليها ظَلمةُ بني أمية وغيرهم، معاندة للإسلام لما كانت عليه ظلمة بني أمية من حيرة جهلها، وعداوة نبي الله بجحودها وضلالها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقد أُصبنا وغُبنَّا بما لم يُصَب به أحد ولم يجتح مجتاح ولا مغبون، فأي مصيبة يا بني أو بلية، أو جائحة نزلت بأحد أو رزية، أصيب بها أحد فيما مضى من الدهر وبقي، أعظم من مصيبة من لم يطع خالقه فيخشاه ويتقي؟! فيقوم بما أمره الله به من طاعته، ويؤثر رضاه بمباعدة أهل معصيته.

وإذ قد أصبحنا يا بني وأصبحتم، وخلقنا في عصرنا هذا أو خلقتم، في هذا الوقت والحين والزمان، الذي لم يكن في الدنيا عصر ولا زمن أوحش ولا أبلى ولا أهول منه منذ خلق الله البشر والإنسان، بل لم يكن مثله منذ برأ الله الإنس الآدمية ولا الجان، وكل دهر أو زمان أو عصر أهله ومَن خلق فيه أعظم بلية من دهرنا، وما قد غلب وعم على أهل ملتنا من الجهل والضلال في

الدين، إذ قد صارت الخاصة والعامة في أرض الله وبلاده مفسدين، ولما أمر الله به رسوله في كتابه وعلى لسان نبيه جاحدين، فأكثر الناس ضال تائه عن الله ورسوله وهو يحسب أنه مهتدي، ناقص دينه الذي أمر الله به ورسوله وهو فَرِحٌ ويعتدي، قد رضي من دينه بالتمني على الله مع تقصيره لتجارة المخلصين، الذين كانوا بتقواهم وطاعتهم برحمة الله ورضوانه مخصوصين، فرجوا وأملوا إذ زعموا وجهلوا وضلوا، أن يكونوا من أهل الطاعة لله و لم يتقوه، كما اتقوا، و لم يعملوا من الصالحات كما علموا، وغرهم الشيطان فأضلهم وأغواهم، إذ لَبَّس عليهم علماء السوء الراكنون إلى غرور دنياهم، فأغفلوا ونسوا ما قال ربهم ومولاهم لمن كان هو خلافهم، ومن كان بعيدا من مثل خطاياهم، ومن لم يركب ما ارتكب أهل هذا الزمان، من كبائر الفواحش والعصيان، إذ تمنوا في أيام الرسول ورجوا طرفا من الرحا والأماني، فقال سبحانه لهم على لسان نبيه منبها ومحذرا، أن يتمنى متمن عليه مع المقام على الذنوب وترك التوبة أن يكون لهم غافرا، فقال سبحانه في ذلك للمؤمنين، وهو ينهاهم أن يكونوا بأهل الكتاب من اليهود والنصارى في التمني على الله للمغفرة وعفو السيئات متشبهين، فنهاهم وحذرهم أن يكونوا لمثل ما يتمنون متمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء:١٢٣ - ١٢٤]، فلم يوجب الرحمة لأحد من خلقه بالأماني، و لم يوجبها إلا لمن عمل الصالحات وآمن من كبائر العصيان.

كذلك قال أيضا سبحانه في موضع آخر من محكم كتابه وهو يذكر ما لهم من الرحمة والغفران، لمن كان ذا تقوى وإيمان: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، فأخبر سبحانه أن رحمته التي وسعت كل شيء لا يكتبها إلا للمتقين.

وقال تبارك وتعالى في موضع ثالث محكم من كتابه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص:٢٨]، وحاشا الله العدل الحكيم أن يكون مَن عصاه وفجر في دينه كالمطيعين الأبرار. وقال في موضع رابع في محكم كتابه، وهو يخبر عن حكمه الذي لا يحكم أبدا بغيره بين عباده: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية:٢١]، وما نزل في القرءان من حكمه بالعقاب على أهل المعصية، وحكمه بالثواب والعفو لأهل التقوى والطاعة، أبين وأوضح وأكثر وأزهر من أن يعمى عنه إلا مَن خدع نفسه وغرها، ومات عقله وهلك ودمر.

وإنما يا بني جرى هذا التبيين مني والكلام في هذا الموضع، لأن لا تغلطوا في مثل ما غَلِطَتْ فيه مِن التمني على الله جهلة العوام.

وسنعود إلى ما كنا فيه من اعتزال جماعة الناس في المدن والقرى والهجرة إلى الله عنهم، والتقرب إليه بالبعد منهم، وسأذكر لكم يا بني بعد ما ذكرت لكم من تنزيل الله، وما ذكر فيه من قول ملائكته للمستضعفين الذين لم يهاجروا عمن يشاقه ويعصيه، أن يقولوا لمن هذه صفته ممن يتوفون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النساء:٩٧]، تعني الملائكة صلوات الله عليهم بقولهم لمن يتوفون: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ ماذا فعلتم فيما به أمرتم من إنكار المنكر؟! والنهي والأمر بالمعروف لمن جاور؟ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فلم تقل ملائكة

الله: كذبتم، ولكنهم قالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]، فاحتجت ملائكة الله على المتوفين الذين ساكنوا العاصين، بما كانوا مستضعفين وعليه قادرين من الهجرة عن العصاة في أرض الله الواسعة، وأن يكونوا لهم غير مجاورين، قال الله أحكم الحاكمين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧﴾ [النساء:٩٧]، وقال تبارك وتعالى منبها دالا لعباده المؤمنين على مجانبة العاصين، وأن يكونوا في بلاده الواسعة لعبادته معتزلين متوحدين: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت:٥٦].

[هجرة الأنبياء عليهم السلام]

فلم تزل الأنبياء والصالحون منذ كانت الدنيا إذا بلغوا رسالات ربهم قومهم فلم يتوبوا من خطاياهم يهاجرون عنهم ويتنحون.

[هجرة إبراهيم]

فذكر الله عن خليله إبراهيم ورسوله، وإبراهيم في كرامته على الله وقدره عند الله، وهو يذكر سبحانه مهاجرته من مدن قومه وقراهم، إذ أبوا عليه ما بعثه الله به إليهم مما فيه رشدهم وهداهم، لأنه صلى الله عليه وآله لما أيس منهم، هاجر إليه تبارك وتعالى عنهم، فلما رءاهم مقيمين على الأمر المذموم عند الله المسخوط، وآمن له ابن أخيه لوط، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت:٢٦]، وكانت هجرته صلى الله عليه وآله هو ولوط ابن أخيه إلى البادية والجبال، لا إلى ما يجمع الناس ويضمهم من المدن والقرى، التي تورث الغفلة لمن فيها ويأوي إليها من أهل الضلالات والجهل والمعاصي والخبال. فهاجر بنفسه وابن أخيه وسارة زوجته ومماليكه، ومن يجري حكمه عليه، حتى نزل بالبادية من جبل بيت المقدس،

فتفرغ هناك خاليا بنفسه ومن أطاعه ممن تحت يديه، وصار إلى ذلك المكان من جبل بيت المقدس، وهو يومئذ جبل خال ليس فيه قرية ولا عمران، منفردا معتزلا لأهل المنكر والفواحش والعصيان، فكان منه في خلاء وبادية، اتخذ فيه حيوان الماشية، من الغنم والحمير والإبل، فبارك الله فيما اقتنى من ذلك وملكه وكثّره.

فذُكر في صحيح الخبر أن ما اتخذ من ذلك نما وانتشر، حتى صارت معه أقاطيع كثيرة من الغنم، وفنون وعدة من الإبل، فكانت ثلاث مائة، وقال بعضهم: ستمائة من الإناث والذكران والحمير، واتخذ من الرقيق صلى الله عليه وآله رجالا ونساء كانوا له خَوَلا تحت يده، فعلمهم طاعته وعبادته، فآثروا أمره وطاعته، فبارك الله في خَوَله ورقيقه فتناسلوا حتى بلغوا مائتين في عددهم ملئوا محَالَهم، الذي هو فيه صلى الله عليه وآله هو وهم من باديتهم وبلدهم.

واتخذ ابن أخيه لوط خولا وحيوانات من الماشية كثيرا، وحفر لهم إبراهيم لكثرة ماشيته بيارا شتى، ثم إنه كان بين حشمه وحشم لوط تضايق، لكثرة ما أنمى الله لهم من الحيوانات، فضاقت بهم المياه، فأوقع ضيق المياه بين الخول لكثرة مواشيهم تنازعا، وكان هو وابن أخيه قد حفروا بيارا ومياها كثيرة في بوادي الجبال وغور الأرض، يتقلبون فيها شتاء وصيفا، خالين بطاعة الله وتقواه، سائحين بذكره وعبادته في تلك الخلوات والمحال الظاهرات.

فلما تنازع رعاته ورعاة ابن أخيه بما كثر من ماشية لوط ومواشيه، فقال إبراهيم لابن أخيه، قول الأنبياء الكرام: يا ابن أخي لا أحب أن تقع الضغائن بين خَوَلك وخولي، فانظر ما في أيدينا من المياه التي حفرنا وبوادينا فاختر أي الناحيتين شئت، إن شئت فاختر بوادينا التي في غور فلسطين، وإن شئت فاختر الجبال المقدسة التي نكون بها صايفين، فخيَّره صلى الله عليه وآله أي البلدين شاء، ومياههما ما كان منها جبليا أو غورا وسهلا، فاختار لوط عليه

السلام غور فلسطين ومياهها وسهلها وبواديها، فاعتزل فيها فصار بخوله وماشيته إليها.

[فقام إبراهيم في بيت المقدس]

وأقام إبراهيم في جبل بيت المقدس، وكان ابن أخيه يغشاه بنفسه ويتردد إليه، وفرقوا بين من معهم من الخول والرعاء، لأن لا يقع بينهم من التنازع والتضايق مثل ما يقع بين أهل الجهل والعمى، وكان يخرج صلى الله عليه وآله داعيا إلى ربه فيما خوّله الله من آفاق البلاد، فخرج قبل مهاجرته من بلده ومولده وهي أرض خراسان والجزيرة إلى أرض العراق، داعيا إلى الله وإلى توحيده، فحبسه نمرود ملك العراق زمانا، ثم خلّصه الله.

[قصة إبراهيم مع فرعون مصر]

وكان قد خرج بعد هجرته ومصيره بيت المقدس إلى أرض مصر داعيا إلى الله، فهمَّ به فرعون أن يقتله، فرأى في منامه ملكين نزلا من السماء قد مليا ما بين السماء والأرض، ينهيانه ويزجرانه أن يعرض له، فاستيقظ فزعا، وأرسل إلى إبراهيم فأجازه وحباه وأعطاه، وأهدى إليه هدايا كثيرة، كانت فيها هاجر جارية كانت عند فرعون من قبط مصر، فوهبها إبراهيم زوجته ابنة عمه سارة. وكانت سارة عاقرا لا تلد، فأقامت هاجر مملوكة لسارة زمانا، حتى عجزت سارة وارتفع الحيض عنها وقعدت عن الولد، فكلمت إبراهيم في أن تهب له هاجر جاريتها، وقالت لإبراهيم: لعل الله أن يهب لك منها ولدا نبيا، فوطىء إبراهيم هاجر جاريته فوهب الله منها إسماعيل صلى الله عليه، فسُرَت سارة به وأحبته وتبنته، فشكر الله لها ما فعلت بإبراهيم، ووهبها من نفسها إسحاق، بعد كبر سنها وارتفاع حيضها.

[قصة سارة مع هاجر]

فلما رأت سارة هبة الله لها إسحاق أبغضت إسماعيل بعد حبه، وباعدته وأمه بعد تقريبها وتقريبه، وألحت على إبراهيم ابن عمها في تبعيد هاجر عنها، وإبعاد إسماعيل ابنها، وقالت: أخرج عني الأمة وولده، وضربتها وآذتها وأساءت إليها، بعد ما كانت عليه من إكرامها وإكرام ابنها.

فلما ألح البلاء منها على هاجر، أخذت بيد ابنها إسماعيل وتنحَّت وتغيَّبت عن سارة، فلم تدر أين تذهب وقعدت تبكي تحت بعض الشجر، فنزل عليها ملك من السماء فقال: يا هاجر يا جارية سارة ما تصنعين هاهنا؟ فشكت إليه ما تلقى وابنها من سارة من الضرب والأذى، فقال له الملك: يا هاجر أمة سارة ارجعي إلى مولاتك فتعبدي لها، واصبري على ما ينالك من أذاها، فإن الله جاعل لك ولابنك فرجا ومخرجا، وجاعل ابنك هذا نبيا، وواهب لك منه نسلا كثيرا لا يحصى عددهم، يكونون وحش الإنس، ويكون لهم نبأ وشأن، وتكون أيديهم مبسوطة بالقوة والبأس، على كل الأمم والأجناس، وهذا من قصة إبراهيم وإسماعيل وسارة وهاجر مثبتٌ في التوراة التي أنزلها الله على موسى [1].

---

(١) نص التوراة هكذا: وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٥:١٧.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٩:١٧.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السنة الآتية. تكوين ٢١:١٧.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ١٨:٦.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ١٨:٩.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٨:١٠.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٨:١٢.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٨:١٣.

فانكرت ـسارةـ قائلة لم اضحك. لانها خافت. فقال لا بل ضحكت. تكوين ١٨:١٥.

وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٧:١٥.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٧:١٩.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السـنة الآتيـة. تكـوين ١٧:٢١.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ١٨:٦.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ١٨:٩.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٨:١٠.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٨:١٢.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٨:١٣.

وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٧:١٥.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٧:١٩.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السنة الآتية. تكوين ١٧:٢١.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ١٨:٦.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ١٨:٩.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٨:١٠.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٨:١٢.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٨:١٣.

فانكرت ـسارةـ قائلة لم اضحك. لانها خافت. فقال لا بل ضحكت. تكوين ١٨:١٥.

تكوين ٢٠:٢ وقال ابراهيم عن ـسارةـ امراته هي اختي. فارسل ابيمالك ملك جرار واخذ ـسارةـ.

فاخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء واعطاها لابراهيم. ورد اليه ـسارةـ امرأته. تكوين ٢٠:١٤.

لان الرب كان قد اغلق كل رحم لبيت ابيمالك بسبب ـسارةـ امرأة ابراهيم. تكوين ٢٠:١٨.

وافتقد الرب ـسارةـ كما قال. وفعل الرب لسارة كما تكلم. تكوين ٢١:١.

فحبلت ـسارةـ وولدت لابراهيم ابنا في شيخوخته. في الوقت الذي تكلم الله عنه. تكوين ٢١:٢.

ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته له ـسارةـ اسحق. تكوين ٢١:٣.

وقالت ـسارةـ قد صنع اليّ الله ضحكا. كل من يسمع يضحك لي. تكوين ٢١:٦.

وقالت من قال لابراهيم ـسارةـ ترضع بنين. حتى ولدت ابنا في شيخوخته. تكوين ٢١:٧.

ورأت ـسارةـ ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم يمزح. تكوين ٢١:٩.

فقال الله لابراهيم لا يقبح في عينيك من اجل الغلام ومن اجل جاريتك. في كل ما تقول لك ـسارةـ اسمع لقولها. لانه باسحق يدعى لك نسل. تكوين ٢١:١٢.

وكانت حياة ـسارةـ مئة وسبعا وعشرين سنة سني حياة ـسارةـ. تكوين ٢٣:١.

[هجرة إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى مكة]

ثم إن الله أمر إبراهيم بإخراج هاجر وإسماعيل إلى مكة ومكة يومئذ بادية خلاء، وواد من أودية تهامة خاو، ليس بها دار ولا بناء، فأنزل إبراهيم ابنه إسماعيل وهاجر في موضع الكعبة، وكان بمكة قوم من اليمن من جُرهُم، فأمر إبراهيم ابنه إسماعيل أن يتزوج فيهم، فتزوج منهم امرأة، ووهبه الله منها ولده، وكثّر بمكة ذريته وعدده.

[بناء الكعبة]

وبنى إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما - كما ذكر الله - الكعبة، ورفعا منها القواعد من البيت، ودعا إبراهيم وإسماعيل لذريتهما - كما ذكر الله - من

وماتت ــسارةــ في قرية اربع التي هي حبرون في ارض كنعان. فاتى ابراهيم ليندب ــسارةــ ويبكي عليها. تكوين ٢:٢٣.

وبعد ذلك دفن ابراهيم ــسارةــ امرأته في مغارة حقل المكفيلة امام ممرا التي هي حبرون في ارض كنعان. تكوين ١٩:٢٣.

وولدت ــسارةــ امرأة سيدي ابنا لسيدي بعدما شاخت فقد اعطاه كل ما له. تكوين ٣٦:٢٤.

فادخلها اسحق الى خباء ــسارةــ امه واخذ رفقة فصارت له زوجة واحبّها. فتعزّى اسحق بعد موت امه. تكوين ٦٧:٢٤.

وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية ــسارةــ لابراهيم. تكوين ١٢:٢٥.

انظروا الى ابراهيم ابيكم والى ــسارةــ التي ولدتكم. لاني دعوته وهو واحد وباركته واكثرته. اشعياء ٢:٥١.

واذ لم يكن ضعيفا في الايمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا اذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع ــسارةــ. رومية ١٩:٤.

بالايمان ــسارةــ نفسها ايضا اخذت قدرة على انشاء نسل وبعد وقت السن ولدت اذ حسبت الذي وعد صادق. عبرانيين ١١:١١.

الدعوة، وقال الله مخبرا في كتابه عن دعاء إبراهيم خليله لذرية إسماعيل ابنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ....﴾ [البقرة:١٢٧ - ١٢٨] إلى آخر الآية.

ووضع إبراهيم أعلام الحرم، وشرف الله إسماعيل بمكة حتى انتشر في البلاد خبره، وعظم شرفه وقدره، بما أظهر بأبيه وبه بمكة من أعلام النبوة، وما ظهر بهما وعلى أيديهما من البراهين البينة، وبالحج واستجابة الناس لإبراهيم إذ أذن بالحج إليه، وألبس الله البيت الهيبة والعظمة عند كل مَن قَدِمَ ووفد عليه، وجعل الحرام أمنا لا يخاف أحد فيه، فأمنت الوحوش النافرة حواليه، مع آيات بينات قد ذكرها الله في القرءان وبيَّنها في تنزيله بأحسن البيان.

[تكاثر ولد إسماعيل]

فلبث ولد إسماعيل بمكة وحواليها وفي بواديها، حتى ضاقت بهم لكثرتهم بوادي الحجاز، وزحم بعضهم بعضا، وكلما عزت قبيلة زحمت ودفعت عنها الأخرى، وانتشروا في البوادي والبراري حتى بلغوا في البوادي ما أشرف على العجم العراق، وبلغوا من ناحية الشام ومصر واليمن، وأقصى ما يتصل بهذه البلدان من البوادي والبراري، وصلحت مكة لخيارهم وأشرافهم، ولآبائهم وأبنائهم من قريش وبني كنانة.

فلم يزالوا كذلك حتى أخرج الله النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء على يده بما جاء به من النبوة والدين والخير والهدى.

ونشر الله ولد إسحاق عليه السلام بالشامن فكانوا بالبوادي بالشام لا في القرى أصحاب ماشية وسير وسياحة في طلب ما يصلح مواشيهم من الرعاء، فأخرج الله منهم من أخرج وذكر في بني إسحاق من الأنبياء، فلم تزل

البوادي وما بَعُدَ من القرى في أول الزمان وآخره مساكن للرسل والأنبياء، والصالحين والأتقياء.

[أحاديث نبوية في الهجرة]

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد مهاجرته إلى المدينة، من ترغيبه عليه السلام في سكنى البادية والشعاب والأودية، ما لا اختلاف على رواية الناس فيه.

فذكر عن عائشة وغيرها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كان يَتَبدَّى إلى أطراف المدينة وبواديها وتلاعها)) [(١)].

وكذلك روت العامة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كان إذا كان أيام الشتاء والمطر تبدى)) [(٢)]. ثم قالت عائشة وغيرها: ((إلى هذه التلاع والشعاب إلى حول المدينة)) [(٣)]. وقالوا: ((إنه صلى الله عليه وآله وسلم يتبدى إلى أطراف تلاعها ونواحي البادية حولها)) [(٤)].

وذكروا في الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول بعد مهاجرته، وبعد إعزاز الله له وظهور حكمه وأمره، وهو يُرغِّب من معه وحوله في التخلي، والتفرد والاعتزال في الشعاب والتنحي: ((إن أغبط الناس عندي لمؤمن في بطن واد من هذه الأودية، أو شعب من هذه الشعاب، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، حتى تأتيه الوفاة)) [(٥)].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي أمامة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أغبط الناس عندي، مؤمن خفيف الحال أو الحاذ، ذو حظ من الصلاة، وأحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس،

هذا يا بني قوله وترغيبه في اعتزال الناس في أيامه، ومع ظهور حكمه، والناس يومئذ هم الناس، ليس فيه الآفات والعاهات التي في البشر اليوم ولا الأدناس.

وذكر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما لا اختلاف بين العلماء الأخيار فيه، أنه قال عليه السلام: ((إذا كان المطر قيظا والولد غيظا، وفاض اللئام فيضا، وغيض الكرام غيضان فأعُترٌ عفر [1] في جبل وعر، خير من ملك بني النضر)) [2]. وهذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسم صفة أزمنة تكون بعده، ومنها الزمان الذي نحن وأنتم يا بني فيه.

فقد لعمري فاض في زماننا وقبله بحين طويل اللئام فيضا، وغيض الكرام غيضا، فأعتر عفر يا بني كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((في جبل وعر، خير من ملك بني النضر)) [3]، وبنوا النضر يا بني هم قريش، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأعتر العفر والسكنى بها في الجبل الوعر، خير لأهل التقوى والبر من الاختلاط في مثل هذا الزمان وما أشبهه بأهل المنكر والشر.

لا يشار إليه بالأصابع، ذو كفاف وصبر على ذلك، ثم نقد بيده فقال: عجلت منيته، وقلت بواكيه، وقل تراثه)).

أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ج١/ص٣٩/ح١٣، و الترمذي في سننه ج٤/ص٥٧٥/ح٢٣٤٧، و ابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٧٩/ح٤١١٧، و ابن حنبل في مسنده ج٥/ص٢٥٢/ح٢٢٢٢١، و الحاكم في مستدركه ج٤/ص١٣٧/ح٧١٤٨، و الحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٥/ح٩٠٩، و الطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٠٥/ح٧٨٢٩.

(١) العُفر، من الظباء: التي يعلو بياضها حمرة.

(٢) عن أبي هريرة قال: ((إذا كان الشتاء قيظا، والولد غيظا، وفاض اللئام فيضا، وغاض الكرام غيضا، فشويهات عفر بجبل، خير من ملك بني النضير)). رواه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٨٧٢١.

(٣) لم أقف عليه.

ولم يزل عقاب الله يا بني فيما مضى، إنما يقع بالأمم في المدن والقرى، وكذلك وعيد الله فإنما هو لهم، قال الله لا شريك له: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾ [الأعراف:٩٨ - ٩٩]، وقال تبارك وتعالى في موضع آخر وهو يذكر عذابه لأهل القرى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝﴾ [الأعراف:٤]، فقال عز وجل في موضع رابع من كتابه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝﴾ [الأنبياء:١١].

وذكر تعذيب الله لأهل القرى في مواضع كثيرة من القرءان، لما لم يزل عليه أهل القرى من كثرة الفساد فيهم والمنكر والعصيان، ولم يكن أهل القرى يا بني أكثر شرا ولا فسادا، ولا أشد الخلق مخالفة عن الهدى ولا عنادا، منهم في زماننا ودهرنا هذا، مع ما في القرى من فساد اللسان، وظهور العجمة واللكنة عن البيان.

[الصفات الحميدة لأهل البوادي]

وأهل البادية فلو لم يكن فيهم مع ما يرغب به عاقل لبيب في أن يأوي إليهم إلا لثباتهم في الكلام، وفصاحة ألسنتهم، وما هم عليه أكثر أهل البادية من الاقتصاد على أقل الكفاف في معيشتهم، والزهد في الدنيا الظاهر في لباسهم وآنيتهم، والجود والسخاء بقليل ذات أيديهم، وبذلهم وكرمهم إذا نزل بهم حق ينوبهم، أو آوى إليهم ضيف يأويهم، فالمقل منهم حينئذ في الجود بما في يده كالمكثر، والفقير في الاجتهاد بما يمكن في أداء الحق الذي نزل به وإكرام الضيف الذي حل بفنائه كالمؤسر، يؤثره عند ذلك على نفسه وعياله، ويبذل

ويجود بما لا يجود به القروي من ماله، هذا مع إقبال أهل البادية على شغلهم، ومعايش أنفسهم وعيالهم، وافتراقهم في منازلهم ومحالهم.
فكل إنسان منهم يمكنه أن يكون وحده، وأن يحجز حرمته عن الفساد وولده.
وهذا ما لا يمكن يا بني في أهل القرى، ألا ترى أهل القرى لا يقدر بعضهم على الاعتزال عن بعض، لأنهم في سكك ودور وبناء، مع طيب البادية يا بني وصحة الأبدان فيها وغذائها، وطيب نسيم رياحها وصفا هوائها ومائها، وما فرش الله فيها بما لا يبلغه فرش الملوك من رمالها وبطحائها، التي ليست فيها ولا قربها أنتان الأنجاس، ولا يغشاها ولا يقر بها من لا حياء له ممن في القرى من غوغاء الناس.
ومع ما في البادية يا بني من المناظر الحسنة من الشجر المختلف والنبات، والدواب من الوحوش الهاملات، وخلوة القلب بالفكر فيما وضع الله لخلقه من العبر والآيات، وما يرون فيها ويعاينون من الجبال التي نصبها الله الشوامخ الراسيات، وما في أهلها وسكانها من فصيح الكلام واللغات، ومعرفة من جاورهم بغريب العربية والبلاغات.
مع ما في البادية يا بني من إمكان اتخاذ المواشي ذوات الأرحام، من الإبل والبقر والحمير والأغنام، التي لا يُتكلف لشيء منها كلفة، ولا يُؤتى لما جعل الله فيها من المعايش والغنى عن الناس على صفة، تكون للرجل بالبادية الناقة الواحدة فتصير نوقا كثيرة بالتناسل وإبلا، ويكون للرجل الشاة الواحدة والشاتان والخمس شياه فتعود بالتناسل في غير طويل من الزمان مالا وأغناما كثيرة، لا يتكلف صاحبها لها علفا ولا مؤنة، وقد تكون له البقرة أو الأتان من الحمير فيرزقه الله تناسلها ونتاجها حتى تصير مالا ذا عدد كثير، والشاة الواحدة والناقة المفردة لا يُقوى عليها ولا على علفها ومؤنتها في مدينة ولا قرية، لما يلزم لها وفيها من الغرامة والنفقة الثقيلة، فليس شيء مما ذكرنا مما

رفق الله على الإنسان من الإناث ذوات الأرحام، ومتناسل الحيوان، يتناسل بالقرى والمدن ولا رعي ولا مكان.

والماشية يا بني فيها وفي تناسلها ودرها وألبانها، وما يرفق الله به عليكم من أثمان حلوبتها وأسمانها، معايش رائقة، وبُلغٌ ومعونة من الله مباركة نافعة، يكف الله بها وجوهكم عن بخلاء الناس ولؤمائهم، وأهل الدناءت والشح من عوامهم، فإن لم يكن لكم مع الماشية في البادية شيء من البيار والمزارع، استغنى كل واحد إن شاء الله منكم وارتفق وانتفع.

[هجرة السلف الصالح من المدن والقرى]

ولم يزل يا بني مَن مضى من الأسلاف من قومكم في قديم الزمان، تكون لهم البوادي ويتخذونها ويسكنونها في كل بلدة وبكل مكان، ولم تزل الأشراف قط يتبوئون البادية، ويعتزلون عن القرى والمدن في الصحاري والبرية في كل ناحية.

فاعتزل في أول الدهر والناس حينئذ ناس في أكبر الشأن والأمر، بنو حسن فَتَبَدَّوا.

أولهم زيد بن الحسن بن علي عليهم السلام، في بادية من المدينة تسمى: البطحاء على أربعة أميال، فاحتفر بها بيارا وبنا بها مساكن متباعدة بعضها عن بعض ودورا. فلم يزل بها ولده بنو حسن بن زيد حتى فرقتهم منها هذه الفتن التي وقعت بالحجاز، فكانوا بها أصح قوم أبدانا، وأجلدها جَلَدا، وأنظرهم ألوانا.

واتخذ يا بني عمكم عبدُ الله بن الحسن فيما مضى من الدهر والزمن بادية لنفسه وولده، سويقة [1] وأكنافها وأوديتها وشعاتها، فاحتفر بها بيارا وعينا

(١) سويقة: موضع قرب المدينة.

بالحزرة [١] في قربها، فيها بنو عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى اليوم، وبعضهم قد اتسعوا وحلوا في بوادي ينبع والغور.

فبنو عمكم بنو عبد الله بن الحسن يا بني منذ نزلوا البادية أكثر قومكم عددا، وأجلدهم جلدا، وأوسعهم منازل وبلدا، وأكثرهم في معايشهم ارتفاقا بالمواشي من الإبل والغنم، فأقربهم لمجاورتهم العرب إلى أخلاق الحرية والكرم، قد دربتهم وخرجتهم البادية وأهلها. فجلدوا واشتدت أبد أنهم في منازلهم إن حضروا وقووا على السفر إذا احتاجوا إلى أن يسافروا، فهان وخف عليهم في السفر سرى الليل، وكبارهم وصغارهم يركبون صعاب الرواحل وصعاب الخيل، رجال ذووا رجلة مخشوشنون، بأدنى اللباس والغذاء مكتفون، قد زال عنهم بسكنى البادية الاسترخاء والتفكك، والوهن والكسل والكسح والتركك، لا يشبهون من ف المدينة وقربها من قومهم في لباس أولئك برقيق الثياب، وقلة صبرهم عن لين الطعام وبارد الشراب، قد زال عنهم في البادية ما لزم أكثر الطالبين بالمدينة من قبيح الألقاب.ولا يعرفون ما يعرف أولئك بالمدينة من اللعب بالحمام، لأن هؤلاء الذين بالمدينة جيرانهم وأخدانهم [٢] العرب الأحرار الكرام، ومَن بالمدينة من آل أبي طالب فأخدانهم وجيرانهم المولّدون [٣] من السودان والسفل اللئام، فكل من هؤلاء وأولئك بمن نشأ معه وجاوره مقتد ومتأس فقد ترك مَن بالمدينة من العبيد والسفل من جاورهم وحادثهم من آل أبي طالب بهم في الدناءة والسقوط متشبها، متمثلا بمذاهبهم محتذيا.

ولآل الحسين بَوَادِي العقيق والعريض.

---

(١) الحزرة: واد من أودية الأشعر، بأسفله العين التي تدعا: سويقة. وفاء الوفاء ٤/١١٩٠.

(٢) الخدن: الصديق.

(٣) المولّد: العربي غير المحض.

ولآل جعفر بَوَادي الفرش (١) وبَوَادي الغور، فلكل بطن منهم بَوادٍ ومعتزلات، ولهم منازل في البوادي والخلوات.

ولآل عثمان باديتان، وادي بدر وبلد العيون تسمى: دعان.

ولآل عمر بادية تسمى: بادية الخلائق والحمراء.

ولآل أبي بكر بوادي الثمر والأجمال.

ولآل طلحة بواد.

ولبني مخزوم وتميم بوادي حول مكة.

ولبني عامر من قريش وفهر بواد كثيرة.

وكان يقال: لا يتم شرف قوم من الأشراف حتى تكون لهم بادية، ولم يزل يا بني كل من يمتعض ويأنف ويمترأ (٢) وإن لم يكن ذا دين من بطون أشراف قريش، إلا ولهم بادية، بل لكل بطن منهم بَوَادٍ ومعتزلات، ومنازل في البوادي وخلوات.

[تحذير أبنائه من سكنى مكة والمدينة والعراق لعداوة أهلها]

واعلموا يا بني أنكم لو لم تعتزلوا المدن في هذا الزمان والقرى، إلا لغلبة عداوتكم وعداوة آبائكم على سكان المدن، وما هم عليه جميعا من مخالفتكم ومخالفة أسلافكم في الرأي والتدبير.

ولا أعلم في أهل المدن كلهم أشد لكم بغضا ومقتا وعداوة من أهل قصبة المدينة ومكة، ففيهم أصل عداوتكم وبغضائكم، وأهلها الذين علّموا أهل الآفاق التدين بخلاف دينكم وآرائكم.

ولا تسكنوا في هذا الزمان قصبة المدينة ولا مكة، وعليكم ما بقيتم بسكنى ما حول المدينة من البادية، والمجاورةِ في بَوَادي الحجاز من أهل الكفاف والعفاف

(١) الفرش: موضع على اثنين وعشرين ميلا من المدينة. وفاء الوفاء ١٢٨١/٤.

(٢) التمعض: الغضب. والتمرأ: تكلف المروءة.

من العرب في البوادي، ولا تختلطوا ولا تجاوروا من العرب أهل اللصوصية والفتنة، ولا تكثروا دخول المدينة ومكة إلا لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو لحج بيت الله الحرام، أو لأخذ حاجة تحتاجون إليها من الأسواق، أو لفتنة هايجة مخوفة غالبة، تخافون معها انقطاع الميرة والطعام، فإن كان عندكم ذخيرة، وكانت عندكم بُلغة ونفقة وميرة، ففي البادية من الأودية والجبال والفروع والمحال في شواهق الجبال من يعزكم عند كل فتنة إن شاء الله تعالى.

وكذلك فلا تسكنوا مدن العراق ولا مدينة الكوفة، فإنهم قد صاروا إلى غاية العداوة والنفاق وليس لكم بلد ولا لأولادكم أنقى من بوادي الحجاز. تولاكم الله بالتوفيق والإرشاد، في الدين والدنيا وسكنى البلاد.

واعلموا يا بني أن ذكر البلاد وأخبارها، وذكر الأمم والأجناس وأمورها، سأشرح لكم إن شاء الله منه ما قد ذكرت لكم في أول كتابي هذا، إني سأشرحه وأبينه لكم بالخبرة والتجربة، ما قد كفيتكم المؤنة فيه، فأوضح لكم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت لي ولكم وفيه، وهو رب العرش الكريم.

وإنما دعاني هاهنا إلى ذكر البادية، ما عرض في وصيتي لكم من ذكر الهجرة عن جماعات المدن والقرى والفجرة الغاوية، فلما أعلمتكم أنه لا مهرب منهم، ولا هجرة إلى الله عنهم، إلا إلى البادية، تعزلكم عن كل فتنة، وما هو أسلم عند الفتن من القرى والمدن، لأن أهل الفتنة إنما يطلبون الغنائم والنهوب في أماكن القرى وطرقها، والناس فلا يطلبون من اعتزل في أودية البوادي، وجبالها الصعبة الرواسي، ولذلك وضعت لكم ووصفت لكم تفصيل البوادي، وما فيها من المرفق والعزلة عن أهل العداوة لربكم.

ولكن سأعود إن شاء الله تعالى إلى ما ابتدأت به من وصيتكم بطاعة خالقكم وربكم، وحذر معصية بارئكم وإلهكم. والآن آخذ من وصيتكم في إتمام

النسق الأول، حتى إن شاء الله وسلّم، وأعان ووفّق وفهّم، آتي لكم على صفة ما تحتاجون إليه وإلى تمييز ما تعملون إن شاء الله عليه، في معرفة البلدان، ومن حولكم من الأمم والأجناس، وبعض ما تحتاجون إليه إن شاء الله لأنفسكم، ومن وهبه الله لكم من أولادكم وأهلكم وحشمكم، وما لا تستغنون عنه من الرأي في سياسة حرمكم وخدمكم.

فتفهّموا إن شاء الله بإقبال وصيتي، واقبلوا ما قد صفيت لكم اختياره من تجربتي، فلا شك إن شاء الله تعالى عندكم وعند غيركم في أني لم آلكم تسديدا ونصحا، وتفهيما لما أوصيتكم به وإيضاحا لذلك وشرحا.

وسأوصيكم وأنبئكم يا بني ببعض ما أوصى الله به ونبيه في الكتاب، من صالح العمل وجميل الأخلاق والآداب، فإنه لا وصية في كل حين أحسن من وصية الله تعالى، ولا تعليم ولا تنبيه لجميل خلق ولا أدب، أحسن ولا أفضل من تعليم الله وتفهيمه.

[التحذير من الكذب]

فمما نهاكم الله عنه وزجر، الكذب في القول والشهادة والخبر، فلا تقولوا يا بني زورا ولا كذبا، ولا تخبروا خبرا باطلا، فإن الله يمقت الباطل والكذب وقولَه، ولا يحب ولا يهدي أهله، يقول الله في كتابه، وهو يذكر ما يحل بمن كذب من سخطه وعقابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل:١٠٥]، وقال سبحانه وهو ينهى عن الكذب وشهادة الزور، وهو يصف عباده الناجين، ويخبر سبحانه وهو ينهى عن الكذب أحد كبائر الذنوب التي يعذب عليها المعذبين: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان:٧٢]، ولكفى

بقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨]، نهيا عن الكذب لمن كان ذا عقل أولي الألباب، فلو لم يترل الله عن ذلك نهيا لكان الكذب منكرا، قولا كان الكذب أو شهادة أو خبرا، ولكان ينبغي أن يتركه من كان ذا نسب وحسب حدا.

وقد قال جدكم القاسم رحمه الله عليه في النهي عن الكذب شعرا. فقال رضي الله عنه:

ما لكريم النصاب والكذب ... ذاك فعال اللئام في الحسب
لو أعطي الحرُّ أن يفه كذباً ... مُلك جميع الملوك من عرب
ما رضي الحُرُّ أن يميل به ... لزعمة من زعائم الكذب
والزور أمرٌ قلاه خالقنا ... وذمَّهُ في مُنْزَلِ الكتب
والعبد إلف له يقلبه ... يميل منه في كل منقلب
يكذب إما لرغبة طمعاً ... أو رهبة للمجون واللعب
أعيذ نفسي ومَن وَلَدتُ ومن ... أحببت من قول كل مكتذب

[التحذير من كثرة الضحك والمزاح]

فإيايكم يا بني ثم إياكم وكثرة الضحك والمزاح، فإن الإفراط في ذلك مما لا يفعله أهل المروءة والعقل والصلاح، فإن (١) ذلك لا يوجد ولا يكون، إلا من أهل السخافة وقلة الدين، لا فيمن اتقى وأصلح، و لم يزل الصالحون من الرسل والأنبياء، وذوي الديانة من أهل المروءة والتقى، يقل مزاحهم ولعبهم، وفرحهم وطربهم، وإنما يُعرف أهل اللب والعقل والصلاح، والرزانة والوقار والخشوع بترك اللعب وكثرة الفرح والطرب والمزاح.

(١) في المخطوط: والصلاح، (وكثرة الضحك والمزاح) فإن. لعل العبارة زيادة سهو والله أعلم.

وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أكثرُ ضحكِه أن تبدو ناجذاه)) [(١)]، والناجذان فهما ما يلي النابين من الأضراس، وذلك هو التبسم لا غير في مفهوم جميع الناس.

وكانت تقول العرب في قديم الزمان: إن بني هاشم كانوا يُعرفون بقلة الانهماك في الضحك، وإن ضحكهم كان تبسما، تنزها منهم عن القهقهة في ضحكهم وتكرما، حتى اختلطوا بأهل المزح من الأجناس، وقاربوا بالحضانة والولادة سفساف الناس، فانهمكوا في دهركم هذا مفرطين في سرف المزح والضحك، وانهتك به في مروءته من آل أبي طالب وغيرهم من انهتك.

فإياكم يا بني ثم إياكم والتمقت بكثرة المزح والفرح والضحك عند خالقكم وإلهكم ومولاكم، فإنه سبحانه يقول في كتابه فيما أدب به عباده من كريم آداب أنبيائه بالاستحسان والرضى، قول قوم فرعون لهارون فيما مضى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]، وقال في موضع آخر من كتابه ذامًّا للمرحين: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء:٣٧].

[التحذير من السرقة والحث على الأمانة]

وأما يا بني ما كره الله من السرق والخيانة، وترك أداء الأمانة، فقد كان هذا في الجاهلية عند أهلها من الكفار مذموما، وكان مَن فعله في الجاهلية لئيما معاقبا مقيتا ملوما. ثم حكم الله في السارق بقطع يده لسخطه عليه، فقال فيما

---

(١) عن الضحاك بن عثمان الحزامي قال: ((لما كان من أمر صفية وحسان واليهودي ما كان، بلغنا أنهم ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم قالت صفية، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأيت أقصى نواجذه، وما رأيته ضحك من شيء قط ضحكه منه)).

رواه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٣٧٦٠.

نزل على نبيه من كتابه: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨]، وقال مؤكدا لأمره في أداء الأمانة إلى أهلها، مرغبا في مكرمة تأدية الأمانة وفعلها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨].

فوالله يا بني إنه ليستحسن من الرجل الكافر، والعجمي الخبيث المحتقر، أداء الأمانة إذا استؤمن عليها، فكيف بالمستأمَن من ذوي الشرف والحسب ألا يؤدي أمانته إلى مَن وثق به واسترسل إليه فيها؟!

ولقد ذكر الله أداء الأمانة عن بعض كفرة أهل الكتاب، منبها بذلك لذوي الورع في الدين والألباب، فقال: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ﴾ [آل عمران:٧٥] ذمًّا منه سبحانه لمن ترك أداء الأمانة وإن كان كافرا. وأداء الرجل يا بني لأمانته فمن صيانته لنفسه وتكرمته لها، ولم تزل الخيانة مذمومة مسخوطة في جميع الأديان والأمم كلها.

[الصدق]

وأوصيكم يا بني بالصدق في الوعد والإخبار، فإن الصدق عند الله من كرم صالح عمل الأبرار، وقد أمر الله بالصدق في مواضع كثيرة من القرءان، وحلى به ووصف أهل الصلاح والإيمان، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥]، فجعل الصدق صفة لصالح الرجال والنساء، ودليلا على الإسلام والإيمان من أشرف الصفات، وجعل الصدق للإسلام والإيمان علامة ثانية من العلامات.

وقال أيضا وهو يصف حدود صفات من رضي عنه من أهـل التقـوى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، فجعل الصدق سبحانه والصبر والقنوت - وهو الدعاء من الداعي قائما لله - والإنفاق مما رزق وتَرْكَ البخل من صفات المتقين الأبرار، وقد ذكر الله الصدق بالرضا منه والوصية منه به وكرر ذلـك تكرارا بعد تكرار، وذكر صدق الوعد فريضة، وجعله من فاضل الأعمـال الصالحة التي مدح بها إسماعيل نبيه صلى الله عليه، فقال تبـارك وتعـالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم:٥٤]، فكان صدق الوعد مما رضي به عن إسماعيل نبيه صلى الله عليـه وآله وجعله له مدحا شريفا سنيا.

[وصايا القرءان]

ولكفاكم يا بني بوصايا الله في القرءان أدبا ووصايا، فإن الله تبارك وتعالى قد أمر عباده في كتابه من صواب الرشد والحكمة بما هو أفضل مما وهبهم الله من العطايا، ففيه فانظروا، ومنه فاقبلوا، وبنوره فاستنيروا، وما أمرتم به في الكتاب أن تفعلوه فافعلوا، فليس خير يبتغى إلا والقرءان به آمر، ولا شـر يتقـى إلا وكتاب الله عنه ناه زاجر.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

فما هذا يا بني في هذه الآية من جوامع الوصايا بالخير والمعروف والكرم، إذ بدأ في وصايا هذه الآية بأوجب الحقوق، وبيَّن حق الخالق وعبادة الله وترك الإشراك به إذ حقه الحق الواجب الأعظم ثم ثنى تبارك وتعالى بعد ذكر عبادته وإيجاب عظيم حقه، بالوصية بحقِ مَن حقُه بعده من أوجب حقوق خلقه، بحق الوالدين اللذين منهما خلق الولد، وهما اللذان ربياه صغيرا وغذواه برزق الله، وكانا في الشفقة عليه والمحبة له والإحسان إليه على ما لا يبلغه بعد الله غيرهما أحد.

ثم وصى في هذه الآية سبحانه بالرأفة والرحمة والصلة بعد الوالدين والإحسان إليهما إلى ذوي الرحم الأقربين، والإحسان إلى ذوي القربى، فهو العطف عليهم - كما قلنا - بالرأفة والرحمة، والصلة لمحتاجهم ومضطرهم بالعطية والهبة، والصبر على ما لا تخلو القربى منه بالحسد والنفاسة على القريب، إذا بان عليه بفضل أو رئاسة، في بُلغ الدنيا أكثر قليلا منهم سعة وجِدَة. فلا يخلونَّ حينئذ من تنقصيه وعيبه والوقيعة فيه، وحينئذ يجب الصبر منه على ذلك للقربى والصفح عنهم وترك مكافأتهم، وذلك الإحسان الذي فرض لهم عليه.

واليتامى فقد أوصى الله في هذه الآية بهم، والإحسان إليهم والرحمة لهم، مما بلوا به من الصغر من فقد والديهم.

ثم أوصى سبحانه في هذه الآية بالمساكين، وهم ذوو العسرة والفقر الشديد، والسُّؤال المحتاجون فأمر بالإحسان إليهم. والإحسان فهو نفعهم وما يتصدق به عليهم.

ثم أوصى سبحانه بابن السبيل، وهو المسافر الغريب الضعيف الذليل، الذي قد تغرَّب عن وطنه وبلده، وانقطع به في بلغه وزاده، وقلة ذات يده، فأمر تعالى بالإحسان إليه. والإحسان إلى ابن السبيل فهو ضيافته ورفده، حتى يخرج من غربته وتضمه بلده.

ثم أوصى تبارك وتعالى بحفظ الجار، ذي القربى في النسب وقريب الجوار. وأوصى بالجار الجنب وهو المتنحي مترله إلى الجار الجنب [١]، والأجنبي فهي المتنحي عن ذي القرابة والنسب. والإحسان فهو الدفع عنه بما أمكن دفعه من المضار والإمساك عما يغمه ويؤذيه، واحتمال بعض خطاياه أو حسده ما لم يصل إلى ما يسخط الله تعالى فيركب كبائر معاصيه.

ثم أوصى تبارك وتعالى بحفظ الصحبة من صاحب الجنب، وهو المصاحب في السفر الأجنبي الذي ليس مترله منك بقريب، وليس بينك وبينه معرفة ولا قرابة، فأوجب سبحانه له حقا بالرفقة والصحابة. ثم أوصى سبحانه وتعالى في هذه الآية بوصية شريفة عنده مكرمة، من الإحسان إلى المماليك العبيد الذين خولهم [٢] من يملكهم، والمملوك فهو إنسان كمالكه وإن كان الله قد جعلهم سخرة لهم، والإحسان إليهم فهو أن لا يقصر في النفقة عليهم عما يغنيهم ويكفيهم، وأن يكسو في البرد والقُرّ ما يدفيهم، وأن يكسو في الصيف ما يواريهم، ويتجاوز لهم - إلا في حد من حدود الله - يغفر ذنوبهم، ولا يفرط الفرط الشديد المسرف في شتمهم وسبهم، فإن غلبوا بالمجانة [٣] والمعصية فبيعهم أصلح وأسلم، وأشبه بالإحسان وأكرم، من تعذيبهم وضربهم، إلا أن يرجو المالك أن ينفع فيهم تأديبهم، فيؤدهم ويعاقبهم عقابا وسطا، ولا يصير من أدهم إلى أدب مسرف مفرط يكون لله سخطا.

ولكن بما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المماليك من الخبر، دلالة على رضى الله سبحانه في الرفق بالمماليك لمن فهم ونظر، فإنه قد صح في منقول الآثار، وما لا شك فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من

---

(١) في المخطوط: الأجنبي. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) خول: ملك. والخول: المماليك.

(٣) المجانة: من المجول.

الأخبار، أنه أوصى في مرضه ونزول موته، فقال نظرا لأمته: ((أوصيكم بالضعيفين المرأة والمملوك)) [(١)]، وذُكر أيضا عنه في الوصية بالمماليك أنه قال للأحرار وهو يوصيهم بما ملكت أيديهم، ويعلمهم أن من يملكون بشرٌ كهُم يؤذيهم ما يؤذيهم، فقال صلى الله عليه وآله: ((أرقاءكم أرقاءكم، لم يُخلقوا من حجر، و لم ينحتوا من شجر، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون)) [(٢)].

فقال الله سبحانه وتعالى في آخر هذه الآية والوصية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦]، والله سبحانه لا يحب ولا يرضى للإنسان الضعيف الفاني التكبر والاحتيال، لأنه وضع الإنسان في الدنيا موضع الوهن والصغار والانحطاط في كل حال. فكم يا بني في هذه الآية من وصية حكيمة؟! ونصائح للناس رضية كريمة؟!

وقال الله سبحانه وهو يوصي من هو به رؤوف رحيم من هذا الإنسان: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠]، فكم في القرءان الحكيم، وتتريل الله الكريم من موعظة شافية كافية لقوم يعقلون؟! ففيه يا بني فانظروا، وبنوره في ظلمة حيرةِ دهركم فاستنيروا، ففيه الدلالة إلى كل

(١) رواه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٢٥٠٠٤.

(٢) رواه الإمام زيد في المسند /٣٩٠، والهادي في الأحكام.

وورد بلفظ: عن تعبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ((أرقاءكم أرقاءكم، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٤/ص٣٦/ح١٦٤٥٦، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٨٨/ح٨١٠٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٣٦/ح١٥٧٢٨.

رشد وخير، جعلكم الله ممن اهتدى في ظُلَم هذا الدهر وحيرته بضياء كتاب الله المبين.

ولكفاكم يا بني بنهي الله عز وجل عن كل شر ومنكر، ترغيبا منه تعالى في كل خير وبر، بقوله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فلا أقل ولا أصغر لمؤمن عند الله سبحانه من الخير والشر، في حكمه شيء لصِغَره وحقارته يسقط ويُحتقر من مثاقيل الذر. ولكفى في النهي عما حرم الله من الحرام بقوله ونهيه، في آخر سورة الأنعام لنبيه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

والفحشاء يا بني التي نهى الله عنها فهو كل فاحش قبيح مستنكر، وذلك فيما قد ألهم الله معرفته كل غوي وبرًّا، وليس يفعل أحد شيئا صغر ولا كبر من الفحشاء والقبيح، إلا وقد رُكِّب في طباعه وألهم معرفة ذلك كل أبيض وأسود أعجمي وفصيح، ألا تستمعون لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝﴾ [الشمس:٧-١٠]، فركَّب الله يا بني كل نفس ومعقولها،

قبل ما عملت من عملها، معرفة ألهمها إياها، تفهم بها ما تأتي من برها وإثمها. وكذلك الفواحش كلها والنفس لما يفعل منها منكره، وكذلك إذا اتَّقَتْ وبَرَّتْ فقد ألهمت النفس وعرفت الأعمال الصالحة البرة.

وفيما ذكر الله سبحانه من النهي في القرءان، عن المنكر والفحشاء والعصيان، ما أغنى وكفى عن تفسيرنا له بالبيان.

وسأعود يا بني إن شاء الله إلى ذكر جُمُل أوصيكم بما أوصى الله به فيها من الطاعة، وفعلُكم لها وأَثَرَتُكم إياها هي الغنائم الكبرى في الدنيا، وبها النجاة عند الله والظفر بثواب الله وحسن جزائه في الدار الأخرى.

وسأذكر لكم يا بني من ذ لك إن شاء الله جُملا مختصرة، إن عملتم بها رجوت أن يكون فيها نجاتكم عند المعاد إلى الله في الدار الآخرة.

[التوحيد]

فأول - إن شاء الله - ذلك ذكر بارئكم وخالقكم وربكم، والفكرة في وحدانيته وجلاله وعظمته، وأن لا تتوهموه مشبها لشيء من خلقه وبريته، ولا مثلا ولا شيئا كالأشياء مشاكلا لشيء مما خلق في أرضه وسماواته. وأن تعلموا إذا فكرتم فجالت بكم الفكر في جميع ما يدرك العقل والحواس، ويحيط به مما ظهر أو غاب أفهام الأولين والآخرين من الناس، من كل حيوان حي، من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو شمس منيرة، أو نور من الأنوار مضي، أو معظَّم مشرق مستحسن بهيٍّ، أرضيا كان ذلك أو سماويا، وتحول به في قلوبكم فكرة، أو تهموه في دنيا أو آخرة، أن تعلموا أن ربكم وإلهكم وصانعكم وصانع كل شيء خلاف لهذا كله، وأنه غير مشبه لشيء من الأشياء كلها التي خلق في سماواته وأرضه. وأن حقيقة الإيمان به أنه هو الله الذي هو خلاف الأشياء كلها، لا يشاكله ولا يشابهه شيء مما في السماوات العلى ولا مما في أرضه وسفلها.

وحقيقة الأيمان به أبدا، والصواب - والحمد لله - فيها والهدى، أنه خلاف كل ما أدركته العقول أو خطر بالبال، في الكرم والعظمة والكبرياء والجلال.
[و] حقيقة اليقين في المعرفة أنه لا يدرك بحيطة ولا تحديد، ولا تمثيل ولا صفة، وكيف يُوصف من لا تدركه العقول، ولا الفكر ولا الحواس؟! ومن تعالى وجلّ عن شبه أهل السماء من الملائكة وتقدس، وعلا عن أن يشبه الأنوار ذات البهاء المضيئة، وحاش الله أن يشبه أو يماثل الإنسان الذي هو من الصور الأرضية، بل هو سبحانه الواحد الحق في الوحدانية، والذي لا تدركه الأبصار، ولا يوصف بحدود ولا أقطار، ولا تقاس عظمته وجلاله وقدرته بشبه ولا مقدار، أعظم من كل شيء عظمته عظما، وأكرم من أن تدركه الأوهام أو تناله الفِكَر كرما، كل كبير معه صغير، وكل معظّم عند ذكره حقير.

فإلهكم يا بني وربكم فسبحوا واذكروا وحبه والوَلَهَ إليه فاستشعروا، ونعمه عليكم فافهموها وإن لم تحصوها واشكروا. وشكركم له وحمدكم فإنما هو بالطاعة والعمل الصالح، لا بالإقرار واللسان، بل بالركوع والسجود والتسليم لأمره والخضوع، والفكرة فيما أبدى من حججه وآياته، وما أراكم من برهان ربوبيته في أرضه وسماواته.

فاسمعوا لإلهكم العظيم وبارئكم الكريم وأطيعوه، واخشوا من خالقكم الرؤوف الرحيم بكم واخضعوا، واحمدوه بألسنتكم وسبحوه، واسجدوا له واركعوا، فإنما حمده وشكره عبادته وطاعته وذكره واتباع ما يحب ويرضيه، واجتناب كلاما نهى عنه من سخطه ومعاصيه، وموالاة أوليائه، ومحبة أحبائه، من رسله وأنبيائه، ومعادات أعدائه، والإيمان به وبملائكته، والتصديق برسله وكتبه.

[الصلاة]

وبعد الاعتقاد منكم يا بني بالإيقان والإيمان، فخذوا أنفسكم بما أمركم به من تطهير الأعضاء والأبدان. فإذا توضأتم فأسبغوا الوضوء، حتى تنظفوا ما أمرتم به من كل عضو. واعلموا أن الوضوء هو التطهر الأصغر، وإن أجلَّ منه في الطهارة والأكبر التطهر والتنظف من كبائر المعاصي. وأن ذلك هو الباب الأكبر، الذي من دخله صار إلى النجاة.

واعلموا يا بني أن الصلاة إنما وضعت وفرضت لذكر الله تعالى والثناء عليه، والفكرة في جلاله وعظمته وما يقرب إليه، وما أنعم به عليه من عظيم نعمه، وما وعد من كريم الثواب في طاعته، وما خوَّفه به من أليم عقابه عذابه على معصيته، فمن لم يكن هكذا فهو ساه في صلاته.

وإنما وضعت الصلاة لذكر الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه:١٤]، وقال الله عز وجل: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون:٤-٥]، والسهو عنها فهو السهو عن ذكر الله تعالى فيها، والإقبال بالفكر والقلب عليها.

فافهموا يا بني - رحمكم الله - قول ربكم ودلالته لعباده وخلقه، على ما في الصلاة والركوع والسجود من رضاه وتعظيم حقه، إذ يقول سبحانه لنبيه وهو يرغبه في الصلاة ويدعوه إليها، ويخبره عن الفضائل في الصلاة وما جعل فيها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، والصلاة - يا بني - فهي السجود والركوع، والقيام والخضوع لله والخشوع، وتمامها وقوامها ونظامها ذكر الله فيها، وإقبال القلب لذكره عليها (١)، ألا ترون كيف يقول الله عز وجل: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾،

---

(١) في المخطوط: فيها. ولعل الصواب ما أثبت.

والصلاة فلها موقع كريم عند الله، وهي في جميع الأديان عند أهلها مما يقرب إلى الله تعالى.

وقد رغب فيها يا بني في مواضع كثيرة من القرءان، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من يتبعه من أهل الإيمان، وقال تعالى منبهاً لنبيه وأوليائه لما في الصلاة من المعونة لهم على تفريج غمومهم وكروبهم، مع ما فيها من القربة إليه ورضاه: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]، وكبرها يا بني الذي ذكر الله هاهنا فهو ثقلها على أهل القسوة واللهو الغافلين، فلا تدعوا يا بني الأخذ بحضكم منها، والإستكثار من نوافلها، وقلة الغفلة عنها، فإن فيها الروح والفرج من الغموم، وكيف لا تكون كذلك وإنما أقيمت وتفرغ فيها لذكر الله الكريم، وأي شغل من الأشغال أو عمل من الأعمال أشرف شرفاً وأجل قدراً من عمل يشتغل العبد فيه من الدنيا ودنسها، ويقبل في صلاته على الخضوع لله صامداً لخالقه وربه ذاكراً.

فهي كما جاء أنه كان في الأذان الأول النداء بها (حي على خير العمل) وهو خير ما أقبل عليه الإنسان وبه اشتغل، قال الله سبحانه الحكيم العليم، وهو يدعو إلى الصلاة والركوع والسجود أبناء خليله ونبيه إسماعيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٧ - ٧٨]، فدلهم اختصاصا لحبه سبحانه لأبيهم إبراهيم وإسماعيل على عمل من أعمال البر يحبه ويرضاه سماه عبادة وخيراً وفلاحاً.

ألا ترون يا بني كيف يقول: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾، ولكفى بهؤلاء الكلمات في هذه الآية دليلا على فضل الصلاة والفلاح.

يا بني في جميع القرءان فهو الربح والأرباح، فما سمعتم في القرءان قد أفلح، فمعناه قد ربح أو أربح، والمفلحون فهو الرابحون.

وفي الصلاة يا بني وفضلها ورضوان الله عمن فعلها من أهلها ما بدا الله بها في صفة المؤمنين، وجعلها أول فريضة على المسلمين، وقدمها قبل غيرها في شرائع الدين، ألا ترون أن الكافر المشرك إذا تاب من شركه وأسلم، كان أول ما يؤمر به أن يبتديه الصلاة لربه وبارئه، قال الله لا شرك له وهو يقدم الصلاة في مترل القرءان، عند ذكره وصفته لأعمال أهل الإيمان: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون:١ - ٩]. فذكر سبحانه صفات المؤمنين التي كانوا بها عنده في الآخرة ناجين، فبدأ فيها بالصلاة عند ذكر أولها، ثم ختم بالمحافظة عليها عند صفاتهم في آخرها.

فتفهموا يا بني - وفقكم الله – في هذه الآيات ما ذكر الله سبحانه من هذه الأعمال التي ورثهم بها الفردوس، وهي ستة أعمال من الحسنات، فقد كفاكم الله الدلالة على النجاة بها إن فعلتموها نجوتم وفزتم بجميع الخيرات، وما ذكر الله به الصلاة من فضلها فهو في آيات لا نحصيها من القرآن، ولا نأتي هاهنا على ذكرها كلها.

وذكر يا بني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يرغب في كثرة الركوع والسجود لله ويدعو إليه، ويقول: ((الصلاة خير موضوع فمن شاء استكثر ومن شاء أقل)) [1].

وذكر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يكثر من نوافل الصلاة ليلاً ونهاراً، ويقول عليه السلام: ((جعلت قرة عيني في الصلاة)) [2].

وذكر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((كان من كثرة صلاته ونوافله ليلاً ونهاراً يصلي حتى ورمت قدماه، فقيل: يا نبي الله ما يحملك على هذا، وقد

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: ((دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فاغتنمت خلوته فقال لي: يا أبا ذر إن للمسجد تحية، قلت: وما تحيته يا رسول الله؟ قال: ركعتان فركعتهما، ثم التفت إلي فقلت: يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال: خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء أكثر. قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الإيمان بالله، ثم ذكر الحديث ... إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر ...)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٨٢/ح٣٦١، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٦٥٣/ح٤١٦٦، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٨٤/ح٢٤٣.

(٢) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((حبب إلي النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة)).

أخرجه النسائي في سننه ٧/ص٦١/ح٣٩٣٩، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٢٨/ح١٢٣١٥، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧٤/ح٢٦٧٦، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٤٢٠/ح١٠١٢، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٨٠/ح٨٨٨٧، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٣٩/ح٧٤١، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٧٨/ح١٣٢٣٢، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٢٠٠/ح٣٤٨٢، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٢٤١/ح٥٢٠٣.

غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال عليه السلام: أفلا أكون عبداً شكورا)) [(١)].

فالصلاة يا بني الصلاة الصلاة فإن فيها فرج غموم قلوبكم، وأنس وحشتكم، ورضوان ربكم، فلا تغفلوا ما بقيتم عنها، واستكثروا ما استطعتم منها، فقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لكثرة رغبته فيها، يكثر الصلاة في ليله ونهاره كثيراً، وأنه كان يلزم ذلك مقيما ومسافرا، حتى أنه كان ليصلي نوافله على ظهر دابته يركع ويسجد، ويكبر ويتشهد حيث توجهت الدابة.

وذكر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: ((إن أغبط الناس عندي لمؤمن ببطن واد من هذه الأودية أو شعب من هذه الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة حتى تأتيه الوفاة)) [(٢)].

---

(١) عن المغيرة قال: ((قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه. فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: أفلا أكون عبدا شكورا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٨٣٠/ح ٤٥٥٦، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧١/ح٢٨١٩، أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ١/ص٢٨/ح٧٣، والنسائي في سننه ج٣/ص٢١٩/ح١٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٠/ح٣١١، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٠١/ح١١٨٢، والترمذي في سننه ج٢/ص٢٦٩/ح٤١٢، وابن ماجه في سننه ج١/ص٤٥٦/ح١٤١٩، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٥١/ح١٨٢٢٣، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩٥/ح٦٩٣، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٣٥/ح٧٥٩، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٤١٩/ح١٠٠٩، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٤١٨/ح١٣٢٥، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٢٩/ح١٩٠، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص١٦/ح٤٥٠٨، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص٢٨٢/ح٢٩٠٠، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٩٧/ح٢٩٥.

(٢) سبق تخريجه.

وقال الله تبارك وتعالى لنبيه مرغباً له ولمن تبعه في التقرب بالصلاة إليه، وأخبره أن الصلاة حسنات يذهبن السيئات، فتفهموا قوله تعالى تعلموا أنها من كرائم القربات لديه، إذ يقول سبحانه لنبيه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤]، وذكر تبارك وتعالى ما يرضى في الصلاة ويجب بقوله تعالى عند ذكر الكافر الناهي عن الصلاة: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق:١٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٤ - ١٩].

وذكر الصلاة فدل على فضلها عند مدحه لإسماعيل نبيه وابن خليله صلى الله عليه حين أخبر أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا، وقال تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسلياً له عن الرغبة في الدنيا، وأمره له بما هو انفع وأربح وأكبر من الدنيا كلها قدراً من الصبر على الصلاة التي تقرب بها من الله، إذ هي أعظم ثوابا من جميع الدنيا وزهرتها التي يمد إليها الإنسان عينيه، قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه:١٣١ - ١٣٢]، فرغب الله نبيه يا بني في الصلاة ونهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به المغرور زهرة دنياه، وأخبره بما أعد في الآخرة من الرزق الباقي لأوليائه، ودله على ما يناله به ويعطاه من التقرب إليه بالصلاة والصبر عليها، وأمر أهله منها بما يرضيه، فقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾، وأعلمه أن

رضاه في التقرب إليه بالصلاة له، وأنه يرزقه ولا يحتاج إلى رزق، فيسأله جل عن ذلك من يُطعم ولا يُطعم الله، البعيد من شبه خلقه، العلي الأكرم.

[وصيته في ذكر الله]

وعليكم يا بني بذكر خالقكم وبارئكم فإن ذلك مما يحق له سبحانه عليكم، وذكركم له بالليل والنهار، فعمل صالح لم يزل من أعمال الأبرار، ومن الأولى بأن يذكر ولا ينسى، وأن يثنى عليه ويسبح في الصباح والمساء ممن خلقكم وفطركم بعد إذ لم تكونوا شيئا، ومن لولاه تبارك وتعالى ما كان أحد منكم حياً، ومن يغذوكم في كل حين برزقه ونعمه، ويجود عليكم بفضله وكرمه، فنعمه عليكم تروح وتغذوا متصلة، فمن أولى منه جل جلاله سبحانه بأنه لا تكون أنفسكم عن ذكره غافلة، فاحمدوه وكبروه وسبحوه فأكثروا ذكره بالغدو والآصال، فإن ذكره وتسبيحه وتكبيره من صالح الأعمال، فإن يقول سبحانه لعباده المؤمنين، وهو يأمرهم أن يكونوا له من الذاكرين، إذ لا يرضى لعباده أن يكونوا عصاة كافرين، بل الذي يرضى لهم أن يشكروه وهو أشكر الشاكرين، فقال سبحانه لعباده المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال سبحانه في الذكر وأمر عباده به في السفر والحضر وبعد إفاضتهم من عرفات، وبعد الوقوف له يوم الحج الأكبر: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ [البقرة:١٩٨ - ٢٠٠]،

فأمرهم تبارك وتعالى بعد قضاء مناسكهم بذكره وأن لا يدعوا ذكره في سائر سببهم، وأن يكثروا من ذكره كما يكثرون أو أشد من ذكر آبائهم وأمهاتهم، وقال تبارك وتعالى - يا بني - وهو يأمر عباده بعد الصلاة له، بذكره على كل حال من أحوالهم، قياما وقعودا وعلى جنوبهم: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]، وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلكم وهو يأمره بتسبيحه وتكبيره في علانيته وسره: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فأمره تبارك وتعالى بذكره على كل حال.

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من قال سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات)) (١).

---

(١) أخرجه محمد بن منصور المرادي في الذكر الحكيم /٣٥١(٤٣٠).

وورد بلفظ: عن كعب قال: ((اختار الله الكلام، فأحب الكلام إلى الله لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، فمن قال: لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر فذلك جلال الله، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: سبحان الله، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: الحمد لله، فذلك ثناء الله وثناؤه الحمد، كتب الله له بها ثلاثين حسنة، وكفر عنه ثلاثين سيئة)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٢/ص٣٠٢/ح٧٩٩٩، والحاكم في مستدركه ج١/ص٦٩٣/ح١٨٨٦، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٢١٠/ح١٠٦٧٦.

وذكر عن علي عليه السلام من وجوه كثيرة حديث مشهور معروف عند أهل البيت عليهم السلام والعامة، وقد سمعته غير مرة أن عليا عليه السلام قال لفاطمة عليها الرضوان: ((إن الطحن واختدامك نفسك قد جهدك فلو أتيت أباك فسألتيه خادما، فقالت: فانطلق معي، قال: فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له فقال: ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك، تسبحان الله إذا أويتما إلى فراشكما ثلاثا وثلاثين، وتحمدانه ثلاثا وثلاثين، وتكبرانه أربعا وثلاثين، فتلكما مائة على اللسان وألف في الميزان. قال علي عليه السلام: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل صلاة فريضة وعند كل نوم، فقال له رجل: ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين، فقال: ولا ليلة صفين)) [1].

---

(١) ورد بلفظ: عن علي ((أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبي، فأتته تسأله خادما، فلم توافقه، فذكرت لعائشة فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم فقال: على مكانكما حتى وجدت برد قدميه على صدري. فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماه، إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١١٣٣/ح ٢٩٤٥، وفي الأدب المفرد ١/ص٢٢٢/ح٦٣٥، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٩١/ح٢٧٢٧، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٣٣٤/ح٥٥٢٤، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٧٧/ح٣٤٠٨، وابن ماجه في سننه ج١/ص٣٠٠/ح٩٢٧، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣١٥/ح٥٠٦٢، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٨٠/ح٦٠٤، والحاكم في مستدركه ج٣/ص١٦٥/ح٤٧٢٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٣/ص٢٣٣/ح٠، ٣/ص٢٩٨/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٦/ح٩٣، والحميدي في مسنده ج١/ص٢٥/ح٤٣، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٣/ص٣٣٩/ح٧٨٧، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٧٤/ح٩١٧٢، والبيهقي في سننه الكبرى

وذكر يا بني عن جدكم الحسن بن علي عليهما السلام حديث معروف عنه، قال: سمعه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من صلى صلاة الصبح ثم جلس يذكر الله إلى أن تطلع الشمس كان له سترا وحجابا من النار)) (١).

واذكروا قول الله سبحانه وهو يرغب في الذكر ويدعو إليه عباده المؤمنين ونبيه خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال سبحانه وهو يأمر نبيه وعباده أن يكونوا له مسبحين: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝ ﴾ [ق:٣٩-٤٠]، يعني تبارك وتعالى: أدبار الصلاة عند الفراغ منها، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ ﴾ [الروم:١٧-١٨].

[قصة سليمان وأمره بضرب أعناق الخيل]

وقال وهو يخبر عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم، ويذكر ما كان عليه من ذكر ربه وتسبيح قبل توار الشمس بالحجاب، وهو سقوط عين الشمس، وقد عرض عليه ما أعطاه الله من أجناس الخيل الفاضلة الجياد، والعرب تسمي الخيل: خير، فشغله صلى الله عليه وسلم العجب بفضل ما أعطاه الله من أجناس الخيل عن تسبيحه كل عشية يذكر الله حتى توارت الشمس بالحجاب،

ج٧/ص٢٩٤/ح١٤٤٩٥، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٢٣٧/ح٢٧٤، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٥١/ح٦٣، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٧/ح٢٦٨٥، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١١١/ح٣٤٥.

(١) أخرجه السيد أبو طالب في أماليه /٤٧٨ (٦٣٨).

فأمر حين أغفله العجب بها والنظر إليها عن تسبيح الله وذكره يوم عرضت عليه ساعة من العشي حتى ذهب وقت تسبيحه برد الخيل عليه آسفا على غفلته بالنظر إليها والعجب بها حتى توارت بالحجاب، يعني: بالشمس، فردت الخيل عليه، فأمر بضرب أعناقها ومسحها بالسوق وعرقبتها، وقال الله سبحانه: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٣]، والمسح: الضرب بالسيف لأعناقها، وسوقها: قطعها بالسيوف أسفاً إذ شغلته عن ذكر الله، لأن ثواب تسبيحة واحدة أكبر وأفضل من الخيل أسفاً على فوات تسبيحه ساعة واحدة.

وقال الله وهو يثني على المؤمنين والمؤمنات بالذكر له في الأوقات: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

فلا تدعوا - يا بني - تعاهد الذكر لله، والتسبيح بالبكر والعشيات قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

[وصيته في الحج]

والحج فقد علمتم ما جاء فيه من الثواب، وأنه قيل أن أقل ما للحاج الخالص النية فيه من عظيم ثواب الله، وأنه يخلف عليه نفقته، ويخلف بالحفظ له في أهله ومهمه وولده، حتى يرجع من سفره لحجته، وأن الحجة المبرورة ليس جزاؤها إلا الجنة، وأن الحج والعمرة ينفيان الفقر كما ينفي الكير خبث الحديد، فلا تدعوه ما أمكنكم إن شاء الله تعالى.

[وصيته في الصدقة]

والصدقة فقد رغب الله فيها ودل عباده المؤمنين عليها، فقال في صفة ما يرضى عن المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

[وصيته في صلة الرحم]

وصلة الرحم والتغافل عما يكون من ذوي الأرحام من الظلم فمن وجه البر والخير، وفي ذلك من الأجر وثواب الله الكبير ما لا يخفى على ذوي الألباب والتفكير، قال الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرعد:٢١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦]، فإذا أوصى الله به في هذه الآية من الوصايا التي ترضيه، ويثيب عليها الثواب العظيم الكبير، وبر الأرحام وصلتها مما يعمر الله به الديار، ويزاد به في البقاء والأعمار، فلا تزهدوا في البر لذوي أرحامكم والصلة، فإن ذلك من أبواب البر عند الله العظام الفاضلة.

ولا بد يا بني من أن يكون في القرابة وذوي الرحم بعض من يحسد ويقطع ويظلم، فإذا كان كذلك من أحد منكم، ولم يكن في الدين فاسقاً ولا سفيهاً عاهراً فاجراً، فصلوا القاطع وإن قطع، واحملوا عنه وإن آذاكم وجهل وظلم، فإن ذلك من الإحسان عند الله والله مع المحسنين، والصبر على ذلك عنهم من الكرم والحلم الذي وصف الله به المؤمنين، قال الله تعالى في دفع السيئة بالحسنة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤]، وهذا في الأبعدين وفي الناس أجمعين، فكيف في ذوي الرحم الأقربين.

واعلموا يا بني أنه لا بد أن يكون بين ذوي الأرحام من الشيطان والترعات وبعض ما يسمع منهم مما يؤذي النفوس في بعض الأوقات، فمن صبر لذلك حيث أحرقه الأذى، فتغافل وكظم حتى يهدأ الغضب ويطفأ، كان محموداً عند الله محسناً وبالحلم والصبر بعد مغتبطاً، وكان المحسن عند الله معاناً، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝ ﴾ [النحل:١٢٨].

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله المتقين أنه قال: ((ليس الواصل من يصل من وصله، إنما الواصل من يصل من قطعه)) [١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن عمه، وابن أبيه وأمه، والناصر لله وله ولدينه علي بن أبي طالب رحمة الله عليه: ((يا علي ألا أدلك على أكرم الأخلاق وأحبها إلى الله؟ قال: بلى يا نبي الله. قال: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك)) [٢]، ولم يصل أحد الرحم ويعفو منها عمن أساء وظلم، إلا طال بإذن الله عمره وكثر رزقه ووسع الله له، فلا

---

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٣٣/ح٥٦٤٥، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٨٩/ح٤٤٥، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٨٢/ح٢٤٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٣١٦/ح١٩٠٨، وأبو داود في سننه ج٢/ص١٣٣/ح١٦٩٧، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص١٦٣/ح٦٥٢٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٢٧/ح١٢٩٩٩، والطبراني في الأحاديث الطوال ج١/ص١٩٩/ح٣، وفي معجمه الأوسط ج ٦/ص٣٦٣/ح٦٦٢٣.

(٢) ورد بلفظ: عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله قال: ((أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٣/ص٤٣٨/ح١٥٦٥٦، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٧٨/ح٧٢٨٥، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٢٣/ح١٩، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٧٠/ح٧٣٩، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٤٩/ح١٢٨٩.

تزهدوا في صلة الأرحام، فإن ذلك من الإيمان والإسلام، وأخلاق ذوي المروءة والحلم وأفعال الكرام.

ومن قطع يا بني من ذوي رحمه من قطعه كان قاطعاً مثله وشريك في ظلمه، فمن صبر على غيظ قطيعة ذوي رحم كان عند الله محسناً مأجوراً، ولما أمره الله به من صلة الرحم مؤتمرا مشكورا، وكان الله بعونه معه وله معيناً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، وقال الله سبحانه وهو يصف المؤمنين، ويخبر عن ما لهم من الثواب والفوز يوم الدين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ ﴾ [الرعد:٢١-٢٤]، فبدأ تبارك وتعالى في صفة عباده المؤمنين بالصلة لما أمر الله به أن يوصل، والذي أمر الله به أن يوصل فهو ذو الرحم، والرحم ابتغاء وجهه سبحانه على المكاره، والكظم على الغيظ، والإنفاق سراً وعلانية، وأن يدرؤا بالحسنة السيئة من ذوي الرحم وغيره، فلا يجازوا من أساء بإساءته، ثم أخبر تعالى أن لهم عقبى الدار وهو ثوابه جل جلاله للأبرار، فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾. فأخبر أنه لا يلحق بهم مع رضاه عنهم من الآباء والأزواج والذرية إلا من عمل من الصلاح والصالحات مثل عملهم، ثم أخبر عن الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهي صلة الرحم، أن عليهم بقطيعة الرحم والفساد في الأرض اللعنة،

ولهم سوء الدار، وهو عذاب النار نعوذ بالله ونستجيره منها، ونسأله العون على ما يبعدنا من تقواه عنها.

فعليكم يا بني بما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم، والصبر على ما لا بد أن يرى من قطيعة بعضهم بالإحتمال والحلم ترشدوا، وبذلك تسعدوا، وتعانوا عليهم وتوفقوا وتسددوا، فلستم تجازون معصية من عصى الله بقطيعتكم مثل طاعة الله في صلته، والتزين بالبر والحلم عمن أفرط منهم في قطيعته، وتوقي ما يقولون به على قطيعتكم من المعاصي والدناءة والعيوب، ولزوم العفاف والصلاح، واجتناب الكبائر من الذنوب، فإن الناس ليسوا عنهم وعنكم بغافلين، وسيبين لكم إذا فعلتم ما أمرتكم به من الحلم والصلة للرحم أنكم لهم في الفضل والخير فائتون، ولا تختلطوا بهم بالإنهماك اختلاط من يغفل الحذر والتحرز، ولا تنقبضوا عنهم من انقباض من تكبر عليهم، ولا تعززوا فاستعملوا الصبر لهم، والإعراض عنهم عند ما لا بد أن يكون من نزغات الشيطان بالحسد، وذلك في القرابة قديما وحديثا ما لا يخلو منه أحد.

[وصيته في سياسة النساء]

وهذا ما أصنع لكم يا بني من الرأي الذي جربت من سياسة النساء الحرائر منهم والإماء، وما ينبغي أن يجربن عليه ويفعل في أمرهن، لأنهن في آدابهن وعقولهن وأخلاقهن قد تنكرن وتغيرن في زمانهن هذا ودهرهن.

فخيرهن يا بني ذوات العفاف والدين، ومن اختار منهن ذوات العفة والصلاح والدين فهو الرابح الراشد غير الخاسر ولا المغبون، ومن مال منهم إلى الحُسْن والجمال وإن لم يكن لمن كان منهن حسن جميل ولا صلاح في دينها، وتحجب وصيانة عند أوليائها، واستقامة في مذاهبهم في الصلاح والأدب والدين والحجاب، كان خاسراً مغبوناً، وبدى له من أخلاقهن في الدين والأخلاق ما لم يزل معه نادماً محزوناً.

فينبغي لمن أراد تزويج الحرائر أن يتثبت تثبتاً شديداً المساءلة عن صلاحهن ودينهن وسيرة أوليائهن، ورجالهن من الآباء والإخوة، ونسائهن ذوات القرابة لهن، فإن كانوا أهل عفاف ومروءة وطهارة، وحجاب لحرمهم، فسيرة نسائهم في أنفسهن لا تشكوا كسيرة رجالهن وأوليائهن، وإن كانوا أعفاء صلحاء، فالنساء لا يكدن يكن إلا على سيرة أوليائهن ورجالهن، وإن كان أولياؤهن الغالب عليهم وعلى نسائهم سوء السيرة وترك التحجب، فاحذورا يا بني الدخول فيهن والتزوج لهن، فإن الغالب عليهن ما يغلب على رجالهن، إن كان شراً فشراً، وإن كان خيراً فخيراً.

فمن أراد منكم يا بني خطبة ارمأة تُذكر بجمال أو غنى، فليسأل عن وليِّها وعفافه، ومذهبه في دينه وصلاحه، فإن كان ذا عفاف وصلاح، ومقالة في دينه بالهدى والصواب، وكان لحرمته ذا صيانة بها، وكانت المرأة التي هو وليها ذات عقل وجمال، وحمد في دينها بالثناء عليها في الصيانة لنفسها، واستقامة الأحوال، ففيها لمن رغب منكم الرغبة، ورجوت بإذن الله أن تحمدوا بالدخول في تزوجها العاقبة، وأن تروا منها المحبة أكثر.

ثم استخارة الله قبل خطبتها والدخول في ملاكها مراراً كثيرة، وكان توكلكم في أمرها على الدعاء إلى الله في الإقدام على تزويجها بالخيرة.

وقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((تتزوج المرأة على جمالها وعلى حسبها ومالها وتتزوج على دينها))، ثم قال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((فعليك بذات الدين تربت يداك)) [(١)]، يعني عليه

(١) عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها وحسبها ودينها وجمالها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص١٩٥٨/ح٤٨٠٢، ومسلم في صحيحه ج٢/ص١٠٨٧/ح١٤٦٦، والنسائي في سننه ج٦/ص٦٨/ح٣٢٣٠، وابن حبان في صحيحه ج٩/ص٣٤٥/ح٤٠٣٦، والترمذي في سننه ج٣/ص٣٩٧/ح١٠٨٦، وابن ماجه في سننه

السلام: فإن فاتت ذات الدين، وآثرت عليها ذات الحسب والجمال والمال خسرت في دينك ودنياك، فعليك يا بني بذات الدين فإن جمعت مع الدين حسباً أو جمالاً أو مالاً ففيها بلا شك الرغبة بالحق اليقين.

واعلموا يا بني أن سياسة النساء الحرائر منهن والإماء، إنما هي على ما يجربن عليه أول ما يدخلن بيوتهن، ونظرن إلى من يملكهن بإجراءهن على الحجاب والصيانة، وساسهن بحوز الدواخل عليهن جرين له على ذلك ما دامت بينه وبينهن الصحابة، وحذرن في ذلك خلاف ما أجراهن عليه، وإن هو أراهن سهولة عند دخول الدواخل عليهن اغترن فيه وأجرينه على إدخال من لا يفهمه، ولا يحيط بغيبه من حشم أهلهن وجاراتهن، ومواليا‌تهن اللواتي متى سهل لهن إدخال مثل ما ذكرنا كان حرياً أن يكون ذلك داعياً إلى فسادهن عليه، ولم يأمن أن يكون منهن المفسدات للمرأة والمصغرات عندها جميل ما يفعل، والمحسنات عندها ما لا يحسن ولا يجمل.

فرأس سياسة النسال حرائرهن والإماء، شدة الضبط والحجاب، وأن لا يؤذن لهن في إدخال من لا يفهمون سرها ولا يأمنون إفسادها وشرها.

يا بني وقد ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((النساء عيٌّ وعورا، فاستروا عيهن بالكسوت، وعوراتهن بالبيوت)) (١)، يريد: سترهن بالبيوت الحجاب لهن عن الدواخل، وإلزامهن بالحجاب الصموت.

ج١/ص٥٩٧/ح١٨٥٨، وأبو داود في سننه ج٢/ص٢٢٠/ح٢٠٤٧، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٢٨/ح٩٥١٧، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧٥/ح٢٦٨٠، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٦٩/ح٥٣٣٧، والدارقطني في سننه ج٣/ص٣٠٣/ح٢١٢، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٨٠/ح١٣٢٤٤، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٢٩٢/ح١٠١٢، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٣٤/ح٣٢٨، وعبد الرزاق في مصنفه ج٣/ص٥٦٠/ح١٧١٤٩، والدارمي في سننه ج٢/ص١٧٩/ح٢١٧٠.

(١) ورد بلفظ: ((النساء خلقن من ضلع وعورة، فاستروا عورهن بالبيوت، واغلبوا على ضعفهن بالسكوت)). رواه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ص٤٤٩٨٧.

واعلموا يا بني أن المرأة وإن حجبها زوجها غاية الحجاب، فربما غفل الزوج عن المملوك المحقور عنده اتكالاً على ذلته، وأنه يفرق منه ويخافه ويهابه، فيدعوه الإسترسال بمحقرة العبد والاتكال على ذلة المملوك وهيبته له بالملكة والرق أن يدخله على حرمه وامرأته، حتى يأنس بهن ويألفهن، ويأنسن به، وهو ذكر من الذكران، وقد ركب الله في طبع الإناث الصغو إلى الذكور، فيقع في غفلته عن الحذر للوغد والعبد ومحقرته له ما يكره من الأمور.

وكم وكم من امرأة شريفة جميلة حسينة، قد دعاها دخول الوغد ومحقرته وألفه، وإقباله عليها وإدباره إلى أعظم الريبة.

فلا يدخلن على ما تحجبون - من نسائكم وحرمكم - من تحتقرون من أوغاد العبيد، فإن ذلك إن فعلتموه لم يؤمن أن يسهل عليهن من محادثتهن لهم، وأنسهم بهم مما يدعوهن إلى المحذور المشقي الهائل الشديد.

فأحجبوا يا بني عن نسائكم وحرمكم، ذكران الرقيق المحقور منهم والغوي والرشيد، الفحول منهم والخصيان، فهم لا يؤمنون على داهية ولا فحشاء ولا عدوان، وإنما المرأة على ما جعلت عليه من وهنها وضعفها، ووليها ما لم تتق الله صاغية إلى الرجال لميلها وإلفها.

ولذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((نهى الرجل عن الخلوة مع امرأة))، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ثالثهما الشيطان))[1]، والغالب على الرجال والنساء الميل من الذكر والأنثى، والصغو من الأنثى إلى الذكر إلا من عصمه الله بالخشية والتقوى والبر.

---

(١) عن جابر بن سمرة قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال: ((أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب، حتى يحلف الرجل و لم يستحلف، ويشهد و لم يستشهد، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيأته فهو مؤمن)).

فاحذورا يا بني الحذر الحذر كل الحذر من أن تدخلوا أبداً على الجرم رجلاً كان خصياً أو فحلاً، قبيحاً كان أو وضيا صبيحاً، وكم عسى أن يتردد ويدخل ويحادث ويألف حتى لا يؤمن منه ما لا يخاف ولا يتوهم ولا يعرف، فإن عصم الله من يدخل عليه من النساء بالطهارة والخوف لله والتقوى، لم يؤمن إذا كثر دخول المماليك عليهنّ أن يظن بهن من السوء ما لم يكن فيهن ولا منهن، وأقل ما في دخول المماليك على النساء ما لا يجوز ولا يحتمله غيور من وقوع أبصار المماليك على محاسنهن وصور أبدانهن، وأن يصفوا لمن لا يدخل من شرار الناس صفتهن، وهذا ما لا يحتمله أهل الغيرة والأنف، فمكروه فيما بقي من الدهور وسلف.

وتعرفوا يا بني عند نسائكم وحرمكم بالغيرة والتغلظ والتشدد في الحجاب، وانهوهن عن كثرة القيام بالليل ورفع الأصوات، ومروهن بالتحجب والتستر وخفض الصوت، فإن في الغفلة عما حذرتكم ما خير به الموت، ولا تُطمعوا أحدا من مماليككم وجيرانكم في التقرب من أبواب دوركم، ولا حيث يسمعون أصوات حرمكم، فإن هذا رأس السياسة للنساء، حرائرهن والإماء،

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٤٠٠/ح٥٥٨٦، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦/ح١٧٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٧/ح٣١، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٨٧/ح٩٢١٩، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٥٠/ح٤٠٤، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١٣٣/ح١٤٣، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٨/ح٢٣،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٠/ح١١٣٤.

فمن تراخى في الحجاب، وتقريب المماليك والأصحاب، من بيوت الحرم وأبوابهن، لم يؤمن أن يتولد من غفلته ما ذكرت فيهن من الفضائح، والذي أمرتكم به هو الذي لم يزل عليه كل غيور من الرجال وصالح، حاطكم الله وحاط لكم، وحفظكم وحفظ عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تُطمعوا النساء في زيارة القرائب، فربما جاء من الغفلة عن ذلك وتسهيله بعض المكاره والمصائب.

كتاب التفسير